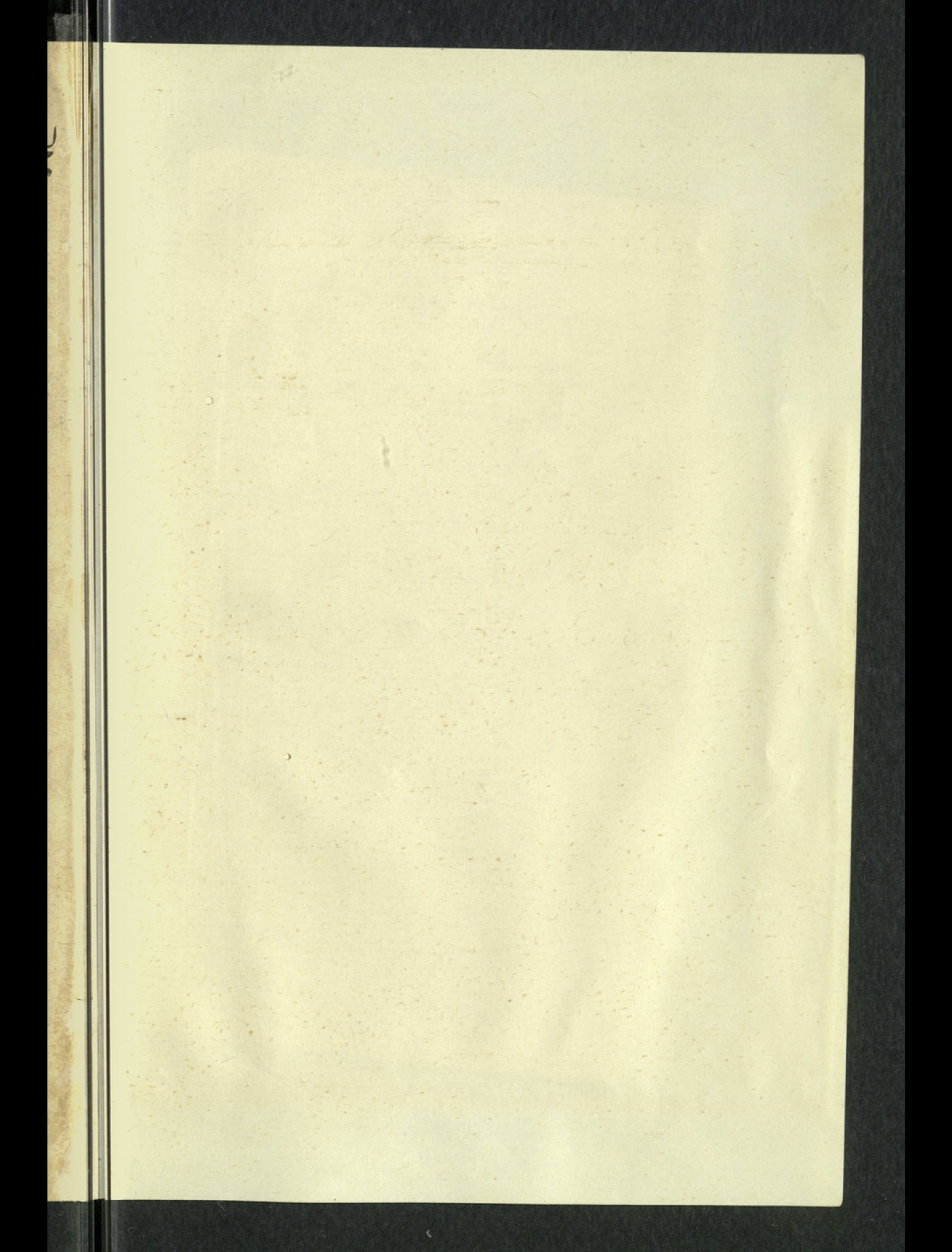
الندوي

الدعوة الاسلامية في الهند والباكستان



لجنة الشباب المسلم

نظرة إجمالية

في

تاريخ الدعوة الإسلامية

في الهند والباكستان

مسعود الندوي

القاهرة

١٣٧٢

المطبعة السلفية

٢١ شارع الفتح بجزيرة الروضة

مقدمة الناشر :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنعم على الانسانية بأخوة الاسلام ، فجمع بها بين قلوب الصفوة المختارة من أنصار الحق ومحبى الخير فى مختلف أقطار الارض من أربعة عشر قرنا الى الآن ، وصبغهم جميعا بالصبغة التى اختارها لهم ، ومَن أحسنُ من الله صبغة ؟ فكانوا بذلك أمة واحدة بعقيدة واحدة ونفس واحدة ونية واحدة وأمنية واحدة : أولها من وراء رفيق الغار فى طريق الهجرة الى الله ، وآخرها مع آخر ناطق بكلمة التوحيد عندما يأذن الله للانسانية بانتهاء أيامها على الأرض

ومن الصفوة المختارة بين أنصار الحق ومحبى الخير فى دنيا المسلمين الآن مؤلف هذا الكتاب أخى فى الاسلام ومبادئه الاولى وأغراضه القصوى الاستاذ مسعود الندوى

عرفته بظهر الغيب وتجاوبِ الأمانى وتوافقِ الفكر منذ نحو ربع قرن عندما كان طالبا فى (دار العلوم) بمدينة لكنو ، وهى مما أسسته (ندوة العلماء) التى غرس دوحتها المباركة كبيرُ علماء الهند فى وقته مولانا الشيخ شبلى النعمانى رحمه الله ثم خلفه على رعايتها والاضطلاع برسالتها كبيرُ علماء مسلمى تلك الديار اليوم مولانا السيد سليمان الندوى مدّ الله فى حياته ، وباشرافه وإرشاده وتوجيهه قام الاستاذ مسعود باصدار مجلة (الضياء) العربية من سنة ١٣٥١ الى سنة ١٣٥٤هـ والظاهر أنها كانت سابقة لأوانها ، أوفوق مستوى الجمهور الذى تعيش به مطبوعاتنا الدورية ، فاضطر منشئها الفاضل مؤلف هذا الكتاب الى الانصراف عنها الى ميادين أخرى لجهـــاده ، وكان آخر ذلك تأسيسه (دار العروبة) عقب الحرب العالمية الثانية ، ومن دار العروبة تصدر التراجم العربية لصيحات الحق التى ينادى بها المجاهد فى سبيل إصلاح المجتمع الاسلامى الاستاذ أبو الأعلى المودودى ، محاولاً إصلاح المجتمع الانسانى نفسه بارشاده الى نظام الاسلام

الذى لاسعادة للانسانية إلا بالرجوع اليه

ومن العجيب أن تؤسس فى پاكستان دارٌ للعروبة عن إيمان وطيد بأن العروبة شقيقة الاسلام ووعاؤه ولسانه ، وأنها منه كاللازم من الملزوم أو الملزوم من اللازم . ولو دعا الى الايمان بذلك قطر يتكلم أهله بالعربية لما كان أمراً عجيبا ، غير أنه قد يُحمل على المحبة الفطرية التى جبل عليها المتكلمون بلغة للغتهم وما يتصل بها أو تتصل به . أما أن تتأسس دار العروبة فى قلعة راولبندى من پاكستان ، وأن يؤمن مؤسسو تلك الدار وفى طليعتهم مسعود الندوى بأن العروبة شقيقة الإسلام ووعاؤه ولسانه ، فان هذا لا يصدر إلا عن قلوب تتحرق أسفاً لأن القارّة الهندية حُرمت أقدامَ الفاتحين من العرب ممن تشرفوا بصحبة النبى ﷺ أو تتلمذوا لأصحابه الكرام رضى الله عنهم[1] ، بينما البلاد الأخرى التى لم تحرم أقدام الفاتحين ممن تشرفوا بصحبته ﷺ

---

(١) انظر ص ١٥ من هذه الرسالة عند كلام المؤلف على الدعوة الاسلامية وتقلص ظلها

وقد أسس قواعدَ الحكم العادل الرحيم فيها رجال أبرار تتلمذوا للصحابة الكرام ، لا نراها تعرف قدر هذا الشرف العظيم كما كان ينبغى لها ، ولا تعنى بتذكير أبناء الجيل فى مدارسها بقواعد الحكم العادل الرحيم التى عمل بها التابعون فى حكومتهم ، بل رأينا فى بعض البلاد التى تشرفت بفتح الصحابة لها ، ودخولها فى الاسلام على أيديهم ، من يذيع قالة السوء من أعداء الصحابة فيما كذَبوه عليهم وشوّهوه من سيرتهم وسيرة تلاميذهم من التابعين الأبرار الأخيار والتابعين لهم باحسان . والحق أن مسلمى الباكستان والهند من أعظم مسلمى الأرض وفاء لإسلامهم ، بما يبدو من وفائهم للذين كانوا سبب دخولهم فى الاسلام كمحمد بن القاسم الثقفى تلميذ الحجاج بن يوسف ورسوله بالاسلام الى تلك الديار .

وفى العالم الاسلامى اليوم مؤلفون لا يحصى عددهم ، لكن الذين ينظرون منهم الى الاسلام بمثل العين التى كان ينظر اليه بها أولئك الذين عاشوا فى الطبقة الاولى والثانية

والثالثة من صدر الاسلام قليلٌ عددهم ، وأقل منهم الذين بلغت بهم محبة الاسلام المبلغ الذى يميزون فيه بين أعدائه وأصدقائه ، وبين ما يدخل فى ميزانه وما يخرج عنه ، ومن هذا القليل النادر الاستاذ مسعود الندوى ، ولا غرو فهو من صفوة تلاميذ مولانا السيد سليمان الندوى ، ومن نوابغ أبناء ندوة العلماء ومعهدها العلمى العظيم دار العلوم . وقد جمع الاستاذ مسعود بين وفائه لدينه ووفائه لوطنه بتأليفه كتابين أحدهما أطول من هذا كان قد آثرنى به وبعث بفصوله الى (الفتح) فنشرت فى أجزائه تباعاً ، وستصدر ان شاء الله فى كتاب على حدة ، وهى تزيد على هذه الرسالة بما تعرضت له من تاريخ ملوك الهند المسلمين . أما هذه الرسالة فتقتصر على العناية بتاريخ الاسلام — لا المسلمين — وما طرأ على الدعوة الاسلامية فى الهند وباكستان من تطور من فجر الاسلام الى العصر الحاضر

ولما كان العالم الاسلامى وطنا واحداً للمسلمين جميعاً ، فان نشر هذين الكتابين بقلم أخى المجاهد الاستاذ مسعود

الندوى مما يساعد على زيادة التعارف بين المسلمين ، وعلى تعريف من لا يعرف الهند وباكستان منهم بهـــذه الناحية العظيمة من العالم الاسلامى . والمسلمون كلما تعارفوا ازدادوا تآلفاً ، وازداد بهم الاسلام قوة واستعلاء . لا سيما اذا كان التعريف من عليم صدوق ناصح لا تحمله محبة الوطن على كتمان نواحى الضعف فى أحـداثه ، بل هو يرى من محبة الوطن أن يزجى العبرة لأبنائه من أخطاء التاريخ ، كما يزجى الموعظة لهم من ناحية القدوة والأسوة بما مضى فى تاريخ هذه الأمة من خير

وسيرى قراء العربية فى مصر وجميع أنحاء العالم الاسلامى بيانا بليغا صادقاً فى هذه الرسالة عن دعوة الاسلام فى الهند وما طرأ عليها من هبوط واعتلاء ، بما صدر عن شانئيها والمؤمنين بها من جهود لتقليص ظلها والقضاء عليها ، أو نشر هدايتها والعمل على بعثها وإحياء سننها . وسيرون كيف يصطدم الحق بالباطل ، وكيف يُقمع الباطل بصولة الحق ، وسيكون من أثر ذلك إحياء ذكرى المجاهدين الاسلاميين

فى الهند و نقش أسمائهم فى قلوب أولياء الاسلام ، والاعتبار بمكايد المبغضين للاسلام لمقاومة أمثالهم ممن يستعين بهم الشيطان فى كل زمان ومكان . فهى إذن من خير ما ينبغى للشباب المسلم الاطلاع عليه

وقد تولى نشر هذه الرسالة (لجنة الشباب المسلم) التى تألفت فى مصر من متخرجى الجامعات المصرية الذين بايعوا الله على أن يتقرّبوا اليه باحياء شريعته وآدابها فى أنفسهم وكل من يتصلون به من لداتهم وإخوانهم ، وأن ينشروا ما يعتقدون النفع للمسلمين بنشره من الكتب عن حقائق الاسلام وأحوال المسلمين . ويسعدنى أن أنوب عنهم فى كتابة هذه المقدمة للتعريف بأخى الاستاذ مسعود الندوى ورسالته ، وان كان الطيب بما يفوح من عبيره لا يحتاج الناس معه الى تعريف

دار الفتح
فى روضة الفسطاط
بمصر

محب الدين الخطيب

مقدمة

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد ، فهذا كتيب ألفته ، وسفر صنعته ، تعريفاً بالدعوة الإسلامية فى الهند وباكستان ، وتنويهاً بجهود دعاة الإسلام الخالص وجهادهم المتواصل لإعلاء كلمة الحق فى هذه البلاد التى لا يصل إخواننا فى الأقطار الأخرى من أخبارها وأعمال القائمين بالدعوة فيها إلا قليل .

وقد سبق لى من قبل نشر مقالات وفصول متتابعة عن انتشار الإسلام فى الهند وتاريخ ملوكها المسلمين فى صحيفة (الفتح) الزاهرة ، وذلك قبل ستة عشر عاماً فصاعداً . أما هذه الرسالة ، فإنها تعنى بتاريخ الإسلام — لا المسلمين — وما طرأ على الدعوة الإسلامية فى هذه البلاد من تطورات وتقلبات فى القرون الغابرة المتطاولة التى تمتد من فجر الإسلام إلى العصر الحاضر . وفرق ما بين (الإسلام) و (المسلمين) لايخفى على اللبيب المتبصر ، ولاسيما فى هذا العصر الذى اتسع فيه الخرق على الراقع ، واتسم

بالمسلم ، وادعى الحقوق التى يخوّلها الإسلام أبناءه ، كلُّ من ولد من أبوين مسلمين وكتب اسمه فى سجل الإحصاء الرسمى .

على أن هـذا الكتيب ، قد توخيت فيه الإيجاز حسب ما استطعت، لأنه قد تقدم لهذا العاجز تأليف كتاب جامع مفصل فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند وباكستان ، وفيت فيه الموضوع حقه من البحث والتحقيق وبذلت فى جمعه وتدوينه الجهد المستطاع عسى أن يتحلى بالطبع عن قريب إن شاء الله تعالى .

والله المسئول أن يتقبل هـذه الجهود القليلة بقبول حسن ، وأن يجعل سائر أعمالنا خالصة لوجهه الكريم . إنه ولى التوفيق وإنه سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه العاجز الفقير إلى رحمة الله

مسعود الندوى

معتمد دار العروبة للدعوة الإسلامية

دار العروبة — راولبندي (باكستان)

ثالث ربيع الأغر سنة ١٣٧٢ هـ

الدعوة الإسلامية فى الهند وپاكستان

نظرة اجمالية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها

---

١ ـ انتشار الإسلام

انتشر الاسلام فى الهند بوسائل عديدة وطرق شتى. من أهمها ارتياد التجار العرب لشواطىء الهند الغربية منذ أقدم العصور، وكان أولئك التجار يُبحرون من سيراف والأبلة (موانىء قديمة فى الخليج الفارسى) ويمرون بشواطىء الهند الغربية وجزيرة سرنديب إلى أن يصلوا شواطىء الهند الشرقية. ومن هناك كانوا يبحرون إلى الصين.

ولما أن استضاءت بلاد العرب بنور الاسلام وعبق أريج فضله فى سهولها وجبالها جاء أولئك التجار العرب الذين كانوا يرتادون سواحل الهند بقبس من ذلك النور الوهاج وأضاءوا به أرجاء الهند الساحلية، وكان ذلك أول عهد الهند بالاسلام، وفى أوائل عصر الخلفاء الراشدين.

والطريق الثانى الذى دخل منه الإسلام الهند ، هى بلاد السند الواقعة على شاطىء الهند الغربى الشمالى ، دخلها الإسلام واستنارت بنوره واستضاءت بضوئه ، حينما دخل محمد بن القاسم الثقفى فاتحاً [١]. وذلك سنة ٩٢ للهجرة . ومما يجدر بالمقام ذكره أن محمد بن القاسم فتح السند وهو ابن سبعة عشر عاما ، وفيه قال الشاعر :

ساس البلاد لسبع عشر حجة   ولداته عن ذاك فى أشغال

ولولا مؤامرة مناوئيه فى دمشق ورجوعه إلى العاصمة على أثر طلب من الخليفة ، لفتح السند كلها ، ولكانت الأرض اليوم غير الأرض .

والطريق الثالث الذى دخل منه الإسلام الهند ، هى الحدود الشمالية الغربية وممرها الجبلى الشهير ، المعروف بوعورة مسلكه وكثرة عقباته . وأول من دخل الهند فاتحاً من هذه الطريق الجبلية ، محمود الغزنى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) ، ثم تتابعت حملات

---

(١) بدأت الحملات على الشواطىء الشمالية الغربية فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إلا أنهم ما توغلوا فى داخل البلاد وقتئذ . وإنما استتب لهم الأمر بيد القائد الشاب محمد بن القاسم

الملوك والقواد ورجال البأس والنجدة من الترك والأفغان والمغول، فأصبحت بلاد الهند كلها خاضعة لحكم الملوك المسلمين، وأصبح لهم فيها الأمر والنهى. وبقى الأمر على ذلك زهاء سبعة قرون إلى أن دخلتها الأنكليز؛ ولكن ملوك المسلمين — على ما كانوا عليه من شدة البأس وأبهة الملك والسلطان — ما أكرهوا الأهالى وسكان البلاد على الدخول فى دين الله وقبول دعوة الإسلام، وإنما أسلم من أسلم منهم مقتنعاً بصدق الدعوة، مؤمناً بالله واليوم الآخر. نعم، قد انجذب إلى الإسلام، دين العدل والنصفة، عدد غير قليل من المنبوذين المضطهدين الذين وجدوا فى الإسلام نجاة لأنفسهم، وتخلصاً من مصائبهم وفكاكاً لأغلالهم التى كانوا يرسفون فيها منذ قرون وأحقاب طويلة.

٢ — الدعوة الإسلامية وتقلص ظلها

ومما يجب تسجيله فى هذا المقام، مع الأسف الشديد، أن الملوك الذين دخلوا الهند فى القرن الرابع للهجرة وما بعده، ما اهتموا بدعوة الإسلام فى قليل ولا كثير. وإنما كان جل همهم فى توطيد الملك وإنفاق الأموال فى الترف والبذخ ولذائذ العيش ومتع الحياة الدنيا الفانية. ولعمر الحق انهم لو اعتنوا بدعوة

الإسلام ونشر كلمة الحق معشار ماعُنوا به من تشييد بنيان الملك وتوطيد دعائم العز الزائل لتبدّلت الأرض غير الأرض وانعدم الكفر من بلاد الهند قاطبة . والذى نراه اليوم من اسم الإسلام فى هذه البلاد وارتفاع كلمته فى بعض أقطارها ، فالفضل فيه يرجع إلى العلماء والمشايخ الذين هاجروا أوطانهم فى بلدان الاسلام ودخلوا الهند دعاة مرشدين وخالطوا أهلها وعاشروهم ولقنوهم مبادىء الدين الحق وعلموهم آداب الاسلام، فتأثر سكان البلاد بأخلاقهم الزكية وسجاياهم العالية ، واختاروا الاسلام دينا لهم عن طيب نفس وانشراح صدر ، لكن أعمال بعض دعاة الحق ولسلام من التجار والعلماء والمشايخ لاتبرىء ساحة الملوك المسلمين وأصحاب السلطان منهم من تبعة هذه الغفلة المنكرة ، والتهاون الشنيع فى أمر الدعوة . وان ننس ، لا ننسى أن بلادنا قد حرمت أقدام الفاتحين من العرب ممن تشرفوا بصحبة النبى ﷺ أواستفادوا من أصحابه الكرام رضى الله عنهم — الذين ما دخلوا قطراً إلا أثروا فيه تأثيراً وصبغوه بصبغتهم الاسلامية العربية وبدلوه تبديلا ، والذين جاءوا منهم إلى بلاد السند وفتحوها، لم يمتد زمن ملكهم ولا توغلوا فى داخل البلاد . وإنما ابليت بلادنا برجال وجماعات من المغول والترك الذين

دخلوها فاتحين ولم يكن لهم علم بمبادىء الاسلام ولا بقوانينه الاجتماعية ، وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بالاسلام ، فلم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان بعد . وذلك من أهم اسباب تقلص ظل الدعوة الاسلامية فى الهند وانتكاس رايتها وعدم سيرها على المنهاج القويم المعتدل . هذه واحدة .

والثانية أن الذين أسلموا من المنبوذين والطبقات المضطهدة ، لم يعن بتربيتهم وتنشئتهم على آداب الاسلام وأخلاقه العالية ، فبقيت الآلاف المؤلفة من أولئك متمسكة بعاداتها ورسومها الوثنية وشعائرها المتوارثة ، المناقضة لروح الدين الحنيف وتعاليمه النقية الطاهرة .

والثالثة أن العلماء والمشايخ الذين وردوا الهند فى عهود الملوك المسلمين ونشروا فيها العلم ، كان جلهم — إن لم يكن كلهم — من علمـــاء ما وراء النهر ، الذين كان معظم اعتمادهم على كتب المتأخرين من فقهاء الحنفية . فما كانوا يعنون بدراسة القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف إلا تحلة للقسم . ومما زاد الطين بلة أنهم كانوا جد مولعين بخرافات اليونان وعلومهم التى أكل عليها الدهر وشرب ، حتى إنه لم يبق فى بلاد اليونان نفسها من يعرف اسمها ورسمها ، فأصبح مسلمو الهند يتسكعون فى ظلمات

علوم اليونان ، وكلما أفاقوا منها قليلا ، انصرفوا إلى كتب فى الفقه لا تسمن طالب العلم فى علمه ولا تغنى من جوع ، وأكبوا على أسفار فى الفروع والخلافيات لا تروى الغليل ولا تشفى العليل .

والرابعة أن الحكومات المنتمية إلى الاسلام والتى قامت وازدهرت فى الهند ،كانت كلها ملكاً شخصياً أرستقراطياً ، لا يستند إلى الشريعة الاسلامية ولا يتقيد بقوانينها وأحكامها إلا قليلا . فما كان من هم أولئك الملوك إلا أن يروا ممالكهم مرتفعة الأعلام ، شامخة الذرى ، مسموعة الكلمة ، عزيزة الجانب ، ينقاد لها الأهالى وتخضع لها شعوب الهند المختلفة ، سواء عليهم فى ذلك أرتفعت راية الاسلام أم انتكست .

هذه هى الأسباب المهمة والعوامل الجوهرية التى سببت تقلص ظل الدعوة الاسلامية فى الهند ، وأفضت إلى بقاء الجزء الأكبر من سكانها مستمسكا بعقائده الوثنية غارقاً فى لجج الشرك والأوهام الجاهلية . وكذلك كان لها تأثير قوى فى بقاء الذين أسلموا منهم على عاداتهم وتقاليدهم وعدم اصطباغهم بصبغة الاسلام والآداب الاسلامية. وجاء ضغثاً على إبالة تأثر المشايخ والصوفية من المسلمين بتعاليم المتصوفة من البراهمة ، فنشأ فيهم

القائلون بنظريات وحدة الوجود والحلول والمتبعون لمتصوفة الهنادك فى رهبانيتهم الباطلة ورياضاتهم المخالفة لما جاء به الدين الحنيف من نظام للحياة معتدل ، جامع بين حسنات الدنيا والآخرة .

وجملة القول أنه كان من جراء هذه وتلك أن عين الاسلام الصافية قد كدرت بأوساخ الجهل والبدع ، ومرآته الوضيئة قد اتسخت بأدران التصوف الباطل والعادات الوثنية ، وأن كثيراً من الأفكار والنظريات التى نشأت وظهرت فى بلادنا باسم الاسلام وفلسفته لم تكن من الاسلام فى شىء ، وأن نظام الحكم الذى امتد سلطانه فى طول البلاد وعرضها ما كان له أدنى صلة بالنظام العادل القويم الذى جاء به الاسلام وأرشد اليه النبى الكريم ﷺ ومثله الخلفاء الراشدون فى عصورهم أحسن تمثيل .

٣ — عصر الضلالة

قد عرف بما تقدم، ما صارت إليه الدعوة الاسلامية فى الهند من انحطاط وتقهقر وتنكب عن المنهج القويم، وذلك قبل القرن العاشر للهجرة ، أى قبل دخول آل تيمور الهند وامتلاكهم لناصية الأمر فيها، ولكن عصر أحفاد تيمور (المتوفى سنة ٨٠٧هـ)

كان أكثر شؤماً وأعظم بلاءً للإسلام وحملة لوائه فى هذا القطر العظيم. فإن الملوك الذين عاشوا قبل القرن العاشر ما كانوا يحاربون الاسلام وما كانوا يضطهدون أهله، بل كان فيهم من سعى فى نشر دعوة الدين وإعلاء كلمته أمثال محمد تغلق (٧٢٥ — ٧٥٢ هـ) وابن عمه فيروز تغلق (٧٥٢ — ٧٩٠ هـ). أما ملوك المغول من أحفاد تيمور، فقد ظهر من بينهم من حارب الاسلام وناصبه العداء، واضطهد القائمين بدعوته، الساعين فى رفع كلمته وأرهقهم بأنواع من العذاب والأذى والتضييق. والذى تولى كبر هذه المحاربة الشنيعة وهذا العداء الممقوت؛ هو الملك (أكبر) الذى تبوأ سرير الملك سنة ٩٦٤ للهجرة وساس البلاد خمسين سنة كاملة إلى أن وافاه الأجل المحتوم سنة ١٠١٤. فأراد هذا الملك الغر أن يقضى على الاسلام أو يلغيه، حسب ما اصطلح عليه أنصاره وأشياعه، وأن يضع ديناً جديداً مقتبساً من شعائر الوثنية ورسومها، يتخللها شىء من تعاليم الاسلام وتوجهاته. والذى حمله على اقتراف هذه الجريمة الشنعاء ورغبه فى ركوب هذا المسلك الوعر، حرصه على بقاء الملك والتحبب إلى أهالى البلاد من الهنادك، وزعمه الفاسد بأن هذا الصنيع يقربه إليهم ويرفع مقامه فى أعينهم ويحله محل الصدارة من قلوبهم. فاختار لذلك طرقاً

عديدة ومناهج متشعبة. منها تزوجه من بنات أمراء الهنادك مع بقائهن على عقائدهن وتمسكهن بدياناتهن وأدائهن لشعائرهن فى القصر الملكى ، ومنها تخلقه بأخلاق الوثنيين وعاداتهم وتقليدهم فى ملابسهم وأوضاع معيشتهم ، وقد بلغ منه الكره والعداء للإسلام أن كان يسمى الخدم والفراشين بأسماء النبى ﷺ (أحمد ومحمد) ، تحقيراً لشأن الرسالة وغضا من كرامتها ، وهيهات أن ينال بغيته . وكذلك استبدل بالتقويم الهجرى الاسلامى تقويماً جديداً سماه التقويم الالهى ، يبتدىء بسنة جلوسه على سرير الملك . ومن بدعه أنه أحل الخمر والقمار وغيرهما من الخبائث والمنكرات . وأعانه على ذلك علماء السوء فى عصره من عبيد الدينار والدرهم ، فزينوا له ما سوّله له عقله المعتوه ، وجعلوه يستيقن من نفسه العصمة ، وقدموا إليه عريضة – تسمى محضراً باللغة الفارسية – تثبت للملك الغر العصمة وتخوله الحق فى أن يشرع من القانون ما يشاء ويضع من الأحكام ما يريد إلى غير ذلك من الأباطيل والخزعبلات التى تضيق هذه العجالة عن سردها . وجملة القول أن هذه البدع والمنكرات ماكانت إلا مقدمة لما كان عقد العزم عليه من وضع دين جديد ينسخ به دين الله الخالد بزعمه ، ظناً منه ومن خواص أشياعه أن هذا الدين

(الاسلام) الذى جاء به محمد العربى — و « البدوى » حسب تعبير أولئك الزنادقة ، قاتلهم الله وجزاهم عن أعمالهم بما يستحقونه — قد مضى عليه ألف سنة ، وقد بلى ثوبه وخلقت ديباجته ، والعصر الجديد يومئذ فى حاجة إلى دين جديد يوافق ميول أهل العصر وأهواءهم ونزعاتهم . فأعلنوا دينهم الجديد وسموه (الدين الالهى) وكان شعارهم فى ذلك « الله أكبر » يريدون به أن هذا الملك الضليل المعتوه (أكبر) هو الله ! فكان من أثر كل ذلك أن أصبح عصر هذا الملك المأفون (٩٦٤ — ١٠١٤ ﻫ) عصر بلاء ومحنة للإسلام والمسلمين فى هذه الديار ، اتسع فيه الخرق على الراقع وجاوز السيل الزبى . فاضطهد من اضطهد من عباد الله ، وحبس من حبس ، واعتقل من اعتقل . إلا أنه مما يؤلم القلب ويدمع العين أنه قد زلت فى هذه الفتنة العمياء أقدام الخاصة والعامة ولم ينج من شرها حتى من كان يعد من كبار العلماء والفقهاء فى ذلك العصر ، فلم يثبت فى تلك المحنة الكبرى إلا عدد قليل منهم جداً . أما جمهور العلماء والعدد الغالب منهم ، فقد استسلموا لأمر الملك وجبروت السلطان القاهر ولم يتحرجوا من التوقيع على «المحضر» الذى ادعى للملك العصمة وخوّله الحق فى وضع الشريعة . ومن أجل ذلك قال الامام

المجاهد أحمد بن عبد الله السرهندى (المتوفى سنة ١٠٣٤ هـ) الذى سوف نذكر من جهاده المبرور ومواقفه المجيدة فى مقاومة هذه الفتنة العمياء ما تقر به عينك ويثلج له فؤادك إن شاء الله، قال رحمه الله ونضر وجهه يوم القيامة :

« ومما لا مجال فيه للشك أن كل ما وقع من المداهنة والتخاذل فى الأحكام الشرعية فى هذا الزمان، وما ظهر من الفساد والوهن فى نشر الدعوة الالهية وإبقاء مآثرها فى هذا العصر، إنما يرجع سببه إلى علماء السوء الذين هم لصوص الدين وشر من تحت أديم السماء. أولئك حزب الشيطان. ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ».

هذا برض من عد، وغيض من فيض، من تلك الفتنة العمياء التى مُنى بها الإسلام والمسلمون فى هذه البلاد فى القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر للهجرة، والتى كادت تأتى على بنيان الإسلام من القواعد، لولا أن تداركته رحمة من الرب العلى العظيم. فقد جرت سنة الله فى خلقه أن اشتداد الظلام وازدياد الحلكة يؤذن دائماً بانبثاق الفجر وانبلاج الصبح المشرق، ومازالت ظلم الحوادث مطلعاً لأنوار الحق وبزوغ شمس الهداية:

إذا الظلام عتا، تبلج فجره   ظلم الحوادث مطلع الأنوار

٤ ـ المجدد السرهندى (٩٧٧ ـ ١٠٣٤ هـ) :

لما آل الأمر إلى ما تقدم بيانه من غربة الإسلام فى هذه البلاد، والتضييق على المسلمين واضطهادهم ، وأصبح مثل القابض على الدين من بينهم كمثل القابض على الجمر ، وقف الرجل الذى قيض الله له أن يقف فى وجه هذا الطاغية وأنصاره الضالين المضلين ، ويرفع لواء أفضل الجهاد ، ويصدع بكلمة الحق ، ويكبح جماح غوايتهم، ويقضى على بدعهم وشرورهم قضاء مبرماً. فقام الأمام المجاهد العالم الزاهد الشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقى السرهندى (١) الملقب بمجدد الألف الثانى للهجرة (٢) بالجدارة والاستحقاق ، وشمر عن أذياله لمقاومة الفتنة الأكبرية ورد مكايد أعداء الاسلام ، وتهذيب نفوس أهل الغواية ، وجاهد فى ذلك جهاداً موفقا مبروراً حتى أنجحه الله فى مساعيه ، وأعاد

---

(١) نسبة إلى (سرهند) بين دهلى عاصمة البلاد الهندية وبنجاب، وفيها قبره يزار ويتبرك به .

(٢) والطريقة المنسوبة إلى الشيخ، هى الطريقة المجددية، وهى وإن كانت أبعد الطرق عن البدع والخرافات فقد تطرق إليها بعض الغلو من الذين نسبوا إليه الكرامات الخارقة وعزوا إليه أقاويل وأعمالا لا يشك عقلاؤهم فى براءته منها .

للإسلام فى هـذه الديار أيامه الغر السالفة ، فارتفعت كلمته من جديد وأصبح المسلمون فى أمن على دينهم وعقائدهم .

نشـأ الشيخ أحمد السرهندى فى الربع الأخير من القرن العاشر للهجرة ، حينما شرع الملك (أكبر) فى نشر تعاليمه الخبيثة وآرائه الباطلة والدعاية لها ، فانتبه للأمر فى أول وهلة ، وجعل يراقب الأحوال عن كثب ، وأخذ يعد عدته لمقـــاومة الفتنة ومحاربتها . فقـام بدعوة واسعة بين جميع طبقات الشعب وبث أتبـاعه ومريديه فى طول البلاد وعرضها ، وكتب إلى أمراء الجيش ورؤساء الدوائر الحكومية ممن آنس فيهم رشداً ، ينبههم من نوم الغفلة ، ويلفت أنظارهم إلى ما أتت به الفتنة الأكبرية من مصيبة وبلاء الدين الحق وما جرته من وبال على المسلمين . ومازال بالأمر يجد ويجتهد فى نشر الدعوة ومحـــاربة البدع والمنكرات ، إلى أن نجحت مساعيه وأثمرت شجرة جهاده وآتت أكلها . فاستبشر بذلك المسلمون استبشاراً ، وعاد للإسلام مجده ورواؤه فى بلاد الهند ، إلا أن نتائج الدعوة هذه ما ظهرت إلا بعد وفاة (أكبر) ، حينما كانت الفتنة فى إبان شبابها فى زمن ابنه الملك جهان كير (١٠١٤ — ١٠٣٧ هـ) ، والمسلمون والدعاة إلى الاسلام يضطهدون ، شأنهم فى عصر الملك (أكبر) ، حتى

أن الملك الخليع (جهان كير) أمر بحبس الشيخ السرهندى فى حصن كواليار مدينة فى قلب الهند . ومن أعاجيب أمر الله فى خلقه أن هذا الحبس انقلب نعمة عظيمة للدعوة الاسلامية فى الهند ، فانه لم يمض على دخول الشيخ فى الحصن - السجن - إلا أيام قلائل حتى تبدلت أرض الحصن غير الأرض ، وصار الجناة من السارقين وقطاع الطريق يصلون ويسجدون ، وأصبحوا يأتمرون بأوامر الشيخ ويؤدون واجباتهم الاسلامية أداء لم يشاهد مثله من أمثالهم من قبل . فتنبه لذلك مدير السجن وكتب إلى الملك يخبره أن المحبوس — الشيخ السرهندى — ليس من شأنه أن يسجن ، وإنما هو ملك قلما ينجب الدهر مثله . فإن رأى الملك أطلقنا سراحه وأكرمناه بما يستحقه . فندم الملك (١) على ماظهر منه من بوادر الشدة فى شأن الشيخ ، وأمر بإحضاره إلى مقر المملكة . ولما بلغه خبر دنوه من العاصمة بعث الأمير (خُرّم) ولى عهد المملكة - الذى اعتلى سرير الملك بعد وفاة أبيه وتلقب بـ (شاه جهان) - لاستقباله والترحيب بمقدمه .

---

(١) وقيل ان الملك رأى فى مايرى النائم ؛ أن الرجل قد ظلم وأن رجلا صالحاً يقول له وهو عاض على يديه « ويحك ! قد حبست رجلا لاترى مثله فى الصلاح والورع » .

وكان أن جاء الشيخ إلى العاصمة وحضر باب الملك فسلم على الملك وعلى حاشيته وحياهم بتحية الاسلام ولم يسجد له ، شأن الناس يومئذ . فتحمل ذلك منه الملك وتلقاه بالترحاب ، وأصر عليه بالبقاء فى البلاط الملكى ، حتى يتسنى له أن ينتفع بنصائحه ويفيد الخير والفضل من مجالسه . فأقام الشيخ أياما فى البلاط الملكى ، وكان من نتائج مساعيه المشكورة ومواعظه البالغة أن رضى الملك بإلغاء كثير من البدع والمنكرات التى كان قد ابتدعها أبوه الطاغية الملك (أكبر) ، فأصدر الأمر الملكى بالأمور الآتية المهمة :

(١) تحريم السجود للملك .

(٢) الأذن بذبح البقر . وقد كان الطاغية (أكبر) حرم ذبحه ، توددا إلى الوثنيين ، عباد البقر .

(٣) تعيين القضاة ورجال الحسبة فى كل بلدة .

(٤) إعادة بناء المساجد المهدمة .

(٥) إبطال القوانين المعارضة للشريعة الاسلامية .

فحصلت بذلك نهضة للدين جديدة ، واستبشر به المسلمون استبشاراً عظيماً . وزال عنهم ما أصابهم من الهم والغم لأجل

الاضطهاد فى أمور الدين والتضييق عليهم فى أداء واجبات الشرع .

وللسيد المجدد ، سقى الله ثراه وأفاض عليه من سجال رحمته، أعمال جليلة أخرى وجهود مشكورة زاهرة ، لا يسع المقام ذكرها والأفاضة فى بيانها ، إلا أننا نرى من واجب المؤرخ وأمانة الراوى أن نشير إلى ثلاث نواحى مهمة سعى فيها المجدد سعيه ، وبذل فى سبيلها الجهد المستطاع .

(١) فأول ما اهتم به السيد المجدد وبذل جهوده فيه إصلاح شأن الحكومة ورجالها والقائمين بأمرها والمتصرفين فى شؤونها، لأنهم هم العمدة ، فإذا صلحوا صلحت البلاد كلها ، وإذا فسدوا فسد المجتمع برمته . وقد نجح فى ذلك نجاحاً ملموساً .

(٢) والثانى أنه رأى بثاقب فكره وواسع علمه أن كل ما تتابع من النوائب على المسلمين فى عصره ، وجميع ما أصيبوا به من ذلة فى الدين وهوان لشعائره الكريمة ، إنما تعود تبعته فى الغالب على علماء السوء الذين تهافتوا على حطام الدنيا الدنيئة ، واشتروا بآيات الله وأوامر رسوله ثمناً قليلا ، فشوهوا سمعة الدين وكانوا مثل سوء لأمتهم وبنى جلدتهم ، حتى أصبح الناس

يسيئون الظن بالدين نفسه . فوقف السيد المجدد موقفاً كريماً وجاهد جهاداً مشكوراً للكشف عن عورات علماء السوء وجرد قلمه للرد على بدعهم وأباطيلهم التى اخترعوها وابتدعوها من تلقاء أنفسهم ونسبوها إلى الدين كذباً وزوراً .

(٣) والثالث أنه شاهد بأم عينه أن الذين يتسمون بسمة الصوفية فى عصره ، قد تأثر أكثرهم بفلسفة البراهمة وجعلوا يقولون بأنواع من العقائد الباطله والمزاعم الفلسفية الضالة المضلة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها مما لا يمت إلى الدين بصلة . وكذلك رأى — وهو قد نشأ وترعرع بينهم ودرج فى عشهم — أن معظم هؤلاء الصوفية قلما يهتمون بالشريعة ويتبعون أوامرها ، وإنما جل اعتمادهم على أقاويل مشايخهم وما تسلسل إليهم من شيوخهم الأقدمين من الأخبار والأقاصيص التى ليست من الدين فى شىء . فقام السيد المجدد قومته الجبارة فى الرد على هؤلاء القوم وتفنيد أباطيلهم وإدحاض شبهاتهم ومزاعمهم .

ومن أهم مارد عليهم وبالغ فيه ، عقيدة وحدة الوجود ، فقد بلغ الأمد أقصاه فى إبطال هذه العقيدة الواهية ، ونقض أقاويل (ابن عربى الطائى) رئيس القائلين بالوحدة وإمامهم . وهذه مكتوباته ورسائله مشحونة بالبحوث القيمة الدقيقة فى

هذا الشأن ، لا يمكن استيفاؤها فى هذه العجالة . وإنما استقصيناها ووفينا حقها فى موضع آخر (١) .

وجملة القول أن دعوة الاسلام فى الهند كانت سائرة ببطء إلى أن ظهر الملك أكبر (٩٦٤ — ١٠١٤ ﻫ) . فأراد أن يقضى عليها ويستبدل بالاسلام نحلة جديدة مبتدعة ، فكان ما كان من البدع والمنكرات والتضييق على الاسلام واضطهاد المؤمنين بدعوته ، المعتزين بمآثره . وظل الأمر على ذلك فى عصر (أكبر) وشطراً من زمن ابنه جهان كير (١٠١٤ — ١٠٣٧) . إلى أن نجحت دعوة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى (المتوفى سنة ١٠٣٤ ﻫ) والملقب بمجدد الألف الثانى ، فعاد للإسلام مجده ورواؤه فى بلاد الهند ، وأصبح مسلموها فى أمن على دينهم وأخلاقهم وأعراضهم .

٥ — بعد السيد المجدد :

ا — الشيخ عبد الحق الدهلوى (٩٥٨ — ١٠٥٢ ﻫ) :

وممن كانت لهم يد فى تأييد الدين ، ونشر تعاليمه الصحيحة ،

(١) تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند للمؤلف .

وتعميم السنة النبوية ، الشيخ عبد الحق الدهلوى(١) الذى كان معاصراً للسيد المجدد ؛ وهو الذى أحيا علم الحديث فى شمالى الهند وسعى سعيه فى نشر معارفه وبث خيراته . فألف مؤلفات عديدة فى الحديث وما يتصل به من العلوم ، وشرح (مشكاة المصابيح) بالعربية والفارسية معاً . والذى يدلنا عليه تاريخ القرن الحادى عشر للهجرة والذى بعده أنه كان لمساعيه وجهوده المشكورة أثر محمود فى نشر السنة وتقريبها الى أذهان الناس الغافلين عنها . والأمة يومئذ كلها كانت فى غفلة عن كنوز السنة النبوية ، إلا من رحم ربك .

هذا ، وقد أشرنا الى مساعى الشيخ عبد الحق فى هذه العجالة بوجه خاص ، والحال أننا لم نذكر شيئاً من جهود العلماء الذين سبقوه ، مع أن أعماله ما جاوزت حدود التدوين والتأليف

---

(١) ولد سنة ٩٥٨ هـ فى دهلى ، عاصمة الهند وأخذ عن والده ، ثم ارتحل الى الحرمين وصحب الشيخ عبد الوهاب المتقى الهندى (المتوفى سنة ١٠٠١ هـ) الذى استوطن الحجاز وقرأ عليه الكتب الستة ، ثم عاد الى الوطن واستقر به وما زال يخدم السنة النبوية وينشر العلم الى أن استأثرت به رحمة الله سنة ١٠٥٢ .

ولم تدخل فى دائرة الجهاد العملى على غرار السيد المجدد . وذلك أن الذين تقدموه من العلماء ، انحصرت جهودهم فى تدريس كتب فى المنطق والفلسفة اليونانية أو العكوف على أسفار فى فروع الفقه الحنفى ، مما لم ينفع الدعوة فى قليل ولا كثير ، بل ان اشتغالهم بعلوم اليونان البالية وانصراف هممهم عن دراسة الكتاب العزيز والسنة النبوية ، واكتفاءهم بكتب فى فروع الفقه ، كل ذلك أضر بالدعوة الاسلامية فى الهند وحال دون استجلاء جمهور المسلمين لوجه الحق المبين واطلاعهم على مزايا الدين الحقيقة . أما الشيخ عبد الحق ، فكان جل اشتغاله بالسنة ونشر تعاليمها وتدريس متونها وتأليف شروحها ، فهو أول رجل فى شمالى الهند وقف نفسه لخدمة السنة النبوية وبث معارفها وتنشئة الناس على العلم بها والعمل ، فله منة فى أعناق المسلمين لا تنسى ، ويد على الدعوة تذكر ، وبلسان الثناء تؤثر . فان ذيوع السنة النبوية والاشتغال بدراستها وتداول متونها وشروحها مما يقرب الناس الى الدين الصحيح ويدنيهم من معينه الصافى .

ب — الملك أورنك زيب (١٠٦٨ — ١١١٨ ﻫ)

ومن كانت لهم يد نافذة فى تثبيت قواعد الدين فى الهند

وإعلاء كلمته وتطهيره من أدران الزيغ والالحاد التى اصقت بها فى العهد الأكبرى المشؤوم ، الملك الصالح الزاهد أبو المظفر محى الدين عالم كير أورنك زيب الذى تولى الأمر بعد أبيه سنة ١٠٦٨ ، وساس البلاد خمسين سنة كاملة مثل جده الأعلى (الملك أكبر) ، المعروف بزندقته وإلحاده . لكنه يفوق جده الأكبر من ناحية الملك وتدبير المملكة أيضاً ، لأن الملك (أكبر) جاءه الملك وهو طفل لم يبلغ الحلم ، فتولى الأمر أحد أعيان المملكة بضع سنين نائباً عنه ، حتى بلغ أشده وأخذ زمام الأمر بيده . أما الملك الصالح أورنك زيب — ابن شاه جهان بن جهان كير ابن أكبر — فتولى الحكم لما كان ابن أربعين سنة وهو مُنَجَّذ فى الحروب ، عارف بأساليب السياسة ومكايدها ، وقد مارس قيادة الجيوش وولاية المقاطعات النائية المتمردة فى عهد أبيه . وكذلك بقى يعالج جميع مهام الحكومة بيده ، ويقود الجيوش ، وينفذ القوانين وهو شيخ جاوز العقد التاسع من عمره ، الى أن وافاه الأجل المحتوم وهو على رأس معركة حاسمة فى أقصى الجنوب ، بعيداً عن العاصمة بألف ميل أو أكثر ، ولا يزال قبره فى أورنك آباد - مدينة فى داخل ولاية حيدر آباد دكن - شاهداً على ذلك . فهو يعد آية خارقة للعادة من ناحية الدهاء

والشجاعة ومضاء العزيمة وسداد الرأى ، إلا أن الذى يهمنا من سيرته فى هذا المقام تلك الخصائص الجليلة التى يمكن أن تعد مفخرة لكبار ملوك العالم ، ويعنينا من أعماله ومواقفه الجليلة فى هذه العجالة موقفه العظيم الحاسم الذى وقفه بازاء البدع والمنكرات والضلالات التى نجم قرنها فى عهد الملك (أكبر) وبقيت آثارها بادية وبقاياها ظاهرة فى المجتمع مدة من الزمان ، على ما بذله المصلحون أمثال السيد المجدد من الجهود الموفقة والمساعى المشكورة للقضاء عليها واستئصال شأفتها . نعم ، يعنينا من أعماله ومواقفه العظيمة فى هذا المقام ، ذلك الموقف الحاسم والأعمال الجليلة الخالدة التى قام بها فى سبيل نشر الدعوة الاسلامية وإعلاء كلمتها والتى حببته الى قلوب المسلمين ورفعت ذكره وأعلت مقامه بين الملوك ورجال العلم فى هذه الديار . ومن هنا تعرف السبب الذى حمل جمهرة مؤرخى الافرنج وكتاب الهنادك على مدح الملك الزنديق (أكبر) وإطرائه والثناء عليه والطعن فى الملك المسلم العادل الورع (أورنك زيب) وإطالة لسان القدح فى سيرته وأعماله الجليلة الباهرة .

فمن حسناته ومآثره انه ألغى جميع البدع والمنكرات التى روجها (أكبر) ونقضها عروة عروة . ودونك بيانها :

(١) ألغى التقويم الالهى الذى كان استبدله الملك (أكبر) بالتقويم الهجرى الاسلامى .

(٢) أذن للمغنين فى أول عهده بالملك أن يحضروا البلاط الملكى بشرط أن يمتنعوا عن الرقص والغناء ، وبعد قليل حظر عليهم ذلك أيضاً .

(٣) منع الاحتفال بعيد رأس السنة الشمسية الذى كان يقيمه (أكبر) ويحتفل به ، إرضاء للمجوس وتقليداً لشعائرهم .

(٤) كان من عادة بعض الملوك من آل تيمور أن يظهروا للناس من شرف قصورهم كل صباح ، لتتمتع الرعية بالنظر الى وجوههم كما هى عادة الملوك الوثنيين مع رعاياهم ، اذ كانوا يعبدون ملوكهم ويقدسونهم كالآلهة ، فقطع (أورنك زيب) هذه العادة .

(٥) وكان من ديدنهم أن يزنوا أجسادهم بالذهب والجواهر الغالية ويتصدقوا بها على الفقراء ، زعماً منهم أن هذه الصنيعة تقيهم نوائب الدهر وموبقاته . فألغاها الملك الزاهد

(٦) عزل المنجمين عن وظائفهم وألغى هذا المنصب بتاتا .
وكان مما جرت به عادة من سبقه من الملوك أن يكون لهم

منجمون ، يرجعون اليهم فى النوائب ويستشيرونهم إذا ألم بهم أمر أو حل بهم مكروه .

(٧) وقد علمت أن الملك (أكبر) كان أباح بيع الخمر علناً ، ثم نسخه ابنه (جهان كير) ، لكنه لم ينجح لأنه كان مدمنا للخمر سكيراً ، ولذلك أباح للناس أن يتعاطوها فى بيوتهم ، أما ابنه (شاه جهان) فقد تشدد فى هذا الامر حتى نجح فى منع المسكرات الى حد ما ، الا أنه استثنى النصارى من هذا القانون وأباح لهم أن يشربوا الخمر كيفما شاءوا .

ولما اعتلى صاحبنا سرير الملك وأخذ زمام الأمر بيده ، صرف همته الى هذا الامر بوجه خاص ، واعتزم أن يجتث شجرة الشر من جذورها ، وافرد لذلك مصلحة خاصة وعين لها موظفين وعمالا يراقبون مرتكبيها رقابة شديدة ويعاقبونهم عقاباً صارماً . وهذه مأثرة من مآثر الملك العادل لا يقدر على جحودها حتى ألد أعدائه من الهنادك والافرنج .

(٨) منع المقامرة منعاً باتا .

(٩) صدر الأمر الملكى للبغايا والراقصات بأن يتزوجن أو يخرجن من حدود المملكة .

هذا غيض من فيض وقليل من كثير من أعماله الجليلة العظيمة التى أداها فى سبيل إعلاء كلمة الله ورفع شأنها فى البلاد الهندية . وفى هذا القدر كفاية للطالب المستبصر . ومن شاء التفصيل ، فليراجع كتابنا المفصل فى هذا الموضوع .

ج — نظام الحكم فى عصره :

أما نظام الحكم فى عصره فقد بقى على ما كان عليه فى عهود آبائه ، شخصياً أرستقراطياً ، فالأمر والنهى كله بيد الملك الذى ورث الملك عن أبيه وهو عازم على أن يرثه عنه ابنه من بعده ، وأنت تعرف أن هذا الملك الشخصى الأرستقراطى ليس من الاسلام فى شىء . وأحسن ما فى سيرة هذا الملك الزاهد العادل أنه بقى مستمسكا بعروة الشريعة الوثقى ، منفذاً لأحكامها وأوامرها ، زاهداً فى المعيشة الذاتية ، متورعاً فى خلقه وأعماله مع كونه فى الوقت نفسه حريصاً على نظام الحكم الأرستقراطى الذى ورثه عن آبائه . فكأنى به أراد أن يجمع بين طرفى النقيض من حيث يشعر أو لا يشعر ، لأن الاسلام لا يعترف للأمير أو الخليفة بالسلطان المطلق ، ولا يسمح بذلك فى حال من الأحوال . والممالك الاسلامية فى الهند كلها كانت أرستقراطية

لاتمت الى نظام الحكم الاسلامى بصلة ، وإنما كان يختلف ضررها وينقص ويزيد باختلاف الملوك ونزعاتهم وميولهم الشخصية . فاذا اعتلى سرير الملك رجل صالح مثل (فيروز تغلق) أو (أورنك زيب) نفقت سوق العدل وجرى العمل بقانون الشريعة وظهرت كلمة الحق . واذا استبد بالأمر طاغية مثل (أكبر) وأراد أن يكيد للاسلام ويتربص به الدوائر ، عمت الظلمة وانتشر الضلال ونجم قرن الإلحاد والزندقة .

٦ — الامام ولى الله الدهلوى (١١١٤ — ١١٧٦ ﻫ) :

نحن الآن فى مطلع القرن الثانى عشر للهجرة ، وقد توفى الملك الزاهد أورنك زيب سنة ١١١٨ ﻫ وخلف من بعده خلف كان كل تال منهم أضعف بأساً وأوهن عزيمة من سابقه ، فما كاد يمضى على وفاته نصف قرن ، حتى تضعضعت دعائم المملكة ، وثار الامراء وولاة المقاطعات على الحكومة المركزية واستبدوا بالأمر من دونها . وكذلك تطلع أمراء الهنادك وزعماؤهم الى استرداد ملك آبائهم ونجمت طوائف جديدة فى مختلف أقطار البلاد تجاذب الحكومة المغولية بحبل ولا تكاد تذعن لأمرها . أما جمهور المسلمين فلم يُعنَ الملوكُ ورجال

حاشيتهم بتربيتهم ، ولم يهتموا بتثقيفهم وتنشئتهم على الأخلاق الاسلامية الزاكية ، بل جعلوهم عالة على الحكومة يتطفلون على مائدتها ويتكففون لرفادتها ، حتى لا تنشأ فيهم حركة تتحدى الحكومة وتثير همم الأهالى للوقوف فى وجه طغيانهم وجبروتهم .

أما المشايخ والصوفية ، فكأنى بجهود السيد المجدد ومؤلفات الشيخ عبد الحق لم تنفعهم ولم تؤثر فيهم إلا قليلا . فالمتصوفة لم تزل على حالها مرتطمة فى أوحال الحلول والوحدة ، عاكفة على رسوم وشعائر لاصلة لها بالاسلام . والعلماء لاتجدهم يعنون بدراسة القرآن العظيم والحديث النبوى الشريف ، فهم لايزالون كما كانوا من قبل عصر السيد المجدد والشيخ عبد الحق ، مكتفين بتدريس كتب فى فروع الفقه الحنفى ، يؤمنون بها كأنها منزلة من عند الله ، ومعظم اشتغالهم بكتب وأسفار فى المنطق والفلسفة اليونانيتين وتعليقاتها ومنهياتها (١) . وقد بالغوا فى ذلك

---

(١) المنهيات اصطلاح لهم يطلقونه على فقرات ينقلونها من شرح أوحاشية على كتاب فى هامش ذلك الكتاب ويختمونها بكلمة (منه) أو (منها) ، أى ان الفقرة منقولة من ذلك الشرح أو تلك الحاشية ، ويسمون مجموع ذلك (منهيات)

مبالغة أنستهم كل شيء وعدلت بهم عن معين الكتاب والسنة. وكذلك أهل الفتيا منهم أصبحوا يقدسون كتب الفقه والفتاوى واتخذوها قرآنهم وآمنوا بها كالأيمان بالمغيبات، وأصبح الشك فى مسألة من مسائلها المدونة يعدل الكفر بالله ورسوله.

وفى تلك الأيام التى وصلت فيها حال المسلمين إلى هذا الدرك الأسفل من الانحطاط، نبغ الأمام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى الذى حمل لواء الأصلاح بيده من جديد، وأراد أن يكمل صرح التجديد الدينى من جميع نواحيه، فشرع فى مهمته بثبات وجلد، وأخذ فى تنقيح الأفكار وانتقاد الآراء بأناة وحكمة. وما زال بالأمر حتى نجح فى تكوين فكرة شاملة للاسلام ونظمه، واهتم بوجه خاص بنشرها وشرحها فى كتبه ومصنفاته؛ وأتاح الله له أن تتخرج على يده طبقة صالحة من أبنائه وتلاميذه وتلاميذهم وأتباعهم، يقومون بالأمر من بعده، وينهضون بالدعوة لاعلاء كلمة الحق، ويضطلعون بأعباء الدين وتعميمه فى أرض الله.

والاحاطة بأعمال هذا الإمام المصلح واستيفاء الكلام فى مهمته العظيمة والافاضة فى بيان آرائه وأفكاره لها موضع آخر

إلا أننا نحب أن نشير فى هذه العجالة الى بعض أعماله الجليلة ونومیٔ اليها إيماء :

(١) لقد غلب التشيع على الحكومة المغولية من عصر همايون (المتوفى سنة ٩٦٤) وما زالت طائفة من أمرائها مستمسكة بمبادئه الى أن استفحل أمرهم وعظم شانهم فى عصر جهان كير (١٠١٤—١٠٣٧هـ) واستولوا على مناصب الحكومة الرفيعة ، فكان لذلك تأثير عظيم فى انحياز الناس الى التشيع ، وتمكن معتقداتهم ورسومهم من قلوب أهل السنة ومجتمعهم . فقام الإمام ولى الله الدهلوى مدافعا عن أهل السنة شارحاً للطريقة المستقيمة المستبينة ، وألف كتابه الممتع (إزالة الخفاء ، عن تاريخ الخلفاء) ، وأثبت فيه فضل الراشدين المهديين وبين منتهم على الأمة ، علاوة على ما أوضح فيه من خصائص الدولة الاسلامية وأسباب نهوضها وزوالها ، وفصل فيه القول على أسس الحكومة الاسلامية وواجباتها ومسؤولية القائمين بها .

(٢) زعم العلماء أن علم الكلام هو قوام الدين وروحه ؛ فعرفهم حقيقة الأمر ، وأرشدهم الى الحق ، وبين لهم أسرار الشريعة وما فى علمي الحديث والفقه من معان سامية وتوجيهات

حكيمة . وكان من أثر ذلك أن تنبه العلماء لفساد الرأى الذى كانوا عليه منذ سبعة قرون .

(٣) ولقد علمت مما سبق عن حال المدارس الهندية الدينية ، أن العلماء والمشايخ قلما كانوا يهتمون بدراسة الكتاب العزيز وتدبر معانيه ومبانيه والوقوف على حكمه وأحكامه ، فأرشدهم الى هذا الموطن الضعيف من منهاجهم وشرح لهم مبانيه ومعانيه وبث معارفه وحقائقه وصنف كتاباً جامعاً فى أصول التفسير ، حتى أصبح القرآن الكريم عندهم يقرأ لدراسته وتدبر آياته والاهتداء بهديه .

(٤) كان العامة يجهلون اللغة العربية جهلا باتاً ، فترجم لهم ألفاظ القرآن الكريم ومفرداته باللغة الفارسية — اللغة الرسمية يومئذ — ليفهم العامة معناها عند تلاوة القرآن بأصله العربى . ثم تابعه أبناؤه من بعده . فترجم الشاه رفيع الدين (المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ) والشاه عبد القادر (المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ) ألفاظ القرآن ومفرداته بالاردية . والترجمة الاخيرة لا تزال مرجعاً للخاصة والعامة فى هذه البلاد ، على مافى الاردية الآن من ألوف التراجم .

(٥) كان الفقه الحنفى عبارة عن كتب فى الفتاوى للفقهاء المتأخرين ، وكانوا ياخذون بما جاء فيها من غير بصر بمراجعها وتمييز لغثها من سمينها . وكانوا يقلدونها تقليداً أعمى ، بل كل كتاب صنفه « حنفى » قبل زمانهم معتمد عندهم ، لا يحيدون عنه قيد شعرة . فنبههم هذا الامام المصلح الى ترك التقليد الجامد والأخذ بأقوال الفقهاء بعد البحث والتحقيق ؛ وكان مطلعاً على أقوال الائمة ، عالماً ببراهينهم وحججهم ، فبين لهم أسباب اختلاف المجتهدين ، وشرح لهم مسألة الاجتهاد والتقليد ، ودعا المسلمين كافة الى الاعتصام بالكتاب والسنة . وكان يسعى للتوفيق بين مذاهب الائمة ، وان تعذر عليه ذلك أخذ ما يوافق الأحاديث الصحيحة ورجحه على غيره ، كما لا يخفى على من اطلع على كتابه النفيس (حجة الله البالغة) . وفى كتيبه الصغير (الانصاف فى بيان سبب الاختلاف) بحوث قيمة مقنعة فى هذا الشان .

(٦) بذل أقصى جهده فى تعميم علوم السنة فى الهند ، فكمل بمساعيه وجهوده البناء الذى وضع أساسه الشيخ عبد الحق (المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ) ، وهو أول من شرح أول كتب

الحديث وأصحها (الموطأ) لامام دار الهجرة مالك بن انس الاصبحى بالعربية والفارسية . وكذلك شرح تراجم أبواب البخارى وصنف رسالة باسم « الفضل المبين من حديث النبى الامين » وصنف فى الفقه وأسرار الحديث كتابه الممتع الخالد السائر « حجة الله البالغة » الذى أشرت اليه آنفا ، ولعمر الحق انه كتاب فريد لا نظير له فى بابه .

أنجاله وتلاميذه :

ومن من الله ونعمه السابغة عليه أن رزقه أنجالا بررة ، كل منهم طود علم راسخ ، وقد أفادوا جماً غفيراً من الناس ، حتى نهلت أرض الهند من علوم الكتاب والسنة وعلت . والذى نشاهده اليوم من ذيوع علوم القرآن والسنة وانتشار التعاليم الدينية الصحيحة انما يرجع فضله الى الإمام ولى الله وأنجاله الغر الميامين النجباء . فلا تجد اليوم فى الهند أحداً ممن له نصيب فى العلم إلا وهو يمت بسبب الى هذا البيت العلمى الكريم . وكذلك نبغ من أحفاد الامام وتلاميذ أبنائه وتلاميذهم رجال نوروا أرجاء الهند المظلمة بأنوار الكتاب والسنة وأضاءوا جوانبها بمصابيح العلم والتقى . فالحقيقة التى لا مراء فيها أن كل ما ظهر فى

هذه البلاد من تباشير الاصلاح والتجديد ، وما تم على أيدى العلماء والمجاهدين من أهلها من خدمات للدين عظيمة منذ القرن الثانى عشر للهجرة الى اليوم ، إنما هو من ثمرات تلك الدوحة الزكية التى غرسها الامام ولى الله وتعهدها بالسقى والتشذيب أبناؤه وتلاميذه وتلاميذهم من بعده .

وان ننس ، لا ننسى من بينهم أنجاله الأربعة والكواكب النيرة : الشاه عبد العزيز[1] (١١٥٩ — ١٢٣٩ هـ) والشاه رفيع الدين (١١٦٣ — ١٢٣٣) والشاه عبد القادر (المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ) والشاه عبد الغنى (المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ) وسبطه الشاه محمد إسحاق (المتوفى سنة ١٢٦٢ هـ) وحفيده الشاه اسماعيل الشهيد (المتوفى سنة ١٢٤٦ هـ) . ولكل من هؤلاء مصنفات سائرة مسير الشمس ، لا تزال تضىء ظلمات الريب وتهتك ستور الزندقة ، وتنور حلك الزيغ والالحاد ، إلا أن أكبرهم

---

(١) (شاه) كلمة فارسية ، معناها (الملك) يلقب بها الصوفية والمشايخ . ولما كان بيت الامام ولى الله أيضاً من بيوت التصوف والطريقة منذ القديم فقد لقب هو وأبوه وانجاله كلهم بهذا اللقب .

ـ الشاه عبد العزيز ـ كان يعد خليفة أبيه ووارث علومه . وكان من قدر الله أن توفى بعدهم جميعاً . أما أصغر أنجاله ـ وهو الشاه عبد الغنى ـ فقد استأثرت به رحمة الله وهو حدث لم يكد يخدم الدين والأمة بشىء يذكر ولذلك لم تدون أخباره فى بطون التاريخ ؛ إلا أن الله رزقه مولوداً كان غرة فى جبين الاصلاح الدينى فى الهند ودرة فى تاج هذا البيت العظيم ، وهو الامام الشهيد المصلح ، الشيخ اسماعيل بن عبد الغنى ابن ولى الله ، وسنذكر فيما يلى جملة من خدماته ومآثره الجليلة الشأن

٧ ـ الإمامان الشهيدان :

السيد أحمد وإسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله :

هذا ، وقد عرفت على وجه الإجمال أن كل ما ظهر من أمارات التجديد والإصلاح وتباشير اليقظة والنهضة الدينية فى الهند ، يرجع الفضل فيه الى الإمام ولى الله الدهلوى وأنجاله النجباء وتلاميذه الكرام ، وقد فاتنا أن نشير الى أن مساعى الإمام ولى الله وجهوده المشكورة . قد بقيت منحصرة فى تنقيح الافكار وانتقاد الآراء وتمهيد السبيل وتذليل العقبات للحركة

الشاملة لإقامة الدين وتنفيذ مشروع التجديد الديني في جميع نواحي الحياة البشرية ، ولم يتمكن بنفسه من الشروع في تلك الدعوة الشاملة والحركة الخطيرة . وكان ذلك أمراً طبعياً لتقادم العهد بتلك الدعوة المباركة وتمكن داء الجمود والتقليد من عقول الناس واستيلاء الخوف والجبن على نفوسهم . ولكن مما لا مجال فيه للريب أن مؤلفات الإمام ولى الله ، ومساعيه المشكورة في تنوير الأذهان ، وجهوده الميمونة في صقل الأفكار وتقويم أود الآراء الزائغة ، قد هيأت القلوب لقبول الدعوة ، والنفوس للبذل والتضحية ، والعقول للتحرر من ربقة الجمود والتقليد الاعمى .

وكان من أثر كل ذلك أنه لم يمض على وفاته زمن طويل ، حتى نبغ من بين أحفاده وتلاميذ أبنائه من قام بدعوة الإسلام الشاملة وسعى سعيه لاعلاء كلمة الله وتنفيذ الشريعة الالهية في الأرض وجاهد في ذلك جهاداً مبروراً . أريد بها تلك الحركة العظيمة الشاملة العامة والدعوة الدينية الجامعة الخاصة التي حمل لواءها واضطلع باعبائها الإمامان الشهيدان والكوكبان النيران :

السيد أحمد بن عرفان[١] والشيخ اسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله[٢] فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة النبوية . ولعمر الحق إن دوحة الاصلاح والتجديد التى غرسها المجدد السرهندى بيده وسقاها الامام ولى الله بعلمه وفكرته الناضجة ، ما أثمرت وآتت أكلها إلا بالخطوات العملية الجبارة التى رسمها الإمامان الشهيدان للبذل والتضحية وبمساعى أصحابهما المتواصلة المتتابعة التى بذلوها فى هذه السبيل وبالدماء الزكية الطاهرة التى أراقوها فى سهول الهند وجبالها ، تبيينا لمعالم الاسلام وإحياء لنظمه الشاملة ودفاعاً عن حظيرة الملة الحنيفية البيضاء .

---

(١) المولود فى بيت من أنجب بيوتات الهند وأشرفها علماً ونسبا سنة ١٢٠١هـ ؛ تلمذ على الشيخ عبد العزيز بن ولى الله وبعض إخوته ، ثم اشتغل بالدعوة والجهاد الى أن مات شهيداً فى معركة دامية ، وذلك عام ١٢٤٦هـ . رحمه الله رحمة الابرار الصالحين من عباده ونضر وجهه يوم القيامة .

(٢) ولد سنة ١١٩٣هـ وتخرج على يد أعمامه ، ثم صحب الإمام السيد أحمد بن عرفان وبايعه على الجهاد ، وكان ملازماً له وزيراً فى جميع شؤون الدعوة والجهاد الى أن توفى شهيداً مع شيخه فى معركة دامية ، رحمه الله ورضى عنه وأسكنه فراديس جناته .

(٣) وذلك خلال سنة ١٢٣١ وسنة ١٢٣٦هـ

قام السيد أحمد بن عرفان وأصحابه بالدعوة بادىء ذى بدء فى داخل الهند ، يدعون الناس إلى الرجوع إلى كنف الشريعة واجتناب البدع والانسلاخ عن عوائد الوثنية ورسوم الشرك الجاهلية المتغلغلة فى حياتهم الاجتماعية . وقاموا لذلك بجولات واسعة فى جميع أنحاء البلاد [١] وكان من تأثيرهم أنهم كلما دخلوا مدينة أو قرية ، هرع أهلها لاستقبالهم والترحيب بهم والاستماع إلى مواعظهم . ثم سافروا إلى الحجاز تأدية لفريضة الحج وتوطئة وتمهيداً للاضطلاع بأعباء الجهاد والحركة الشاملة التى كانوا يريدون القيام بها فى الحدود الشمالية الغربية ، حينما بلغهم خبر استفحال أمر السيك [٢] واضطهادهم للمسلمين . فكان حجاً

---

(١) وذلك خلال سنة ١٢٣١ و سنة ١٢٣٦ هـ .

(٢) السيك (Sikh) طائفة من الهنادك أنفسهم ، تحولت إلى نحلة مستقلة. ومن أعاجيب الدهر أن مؤسسها الأول كرو نانك (Nânak) المتوفى سنة ١٥٣٣ م كان رجلا وادعاً مسالماً ، تأثر بكتب المتصوفة من المسلمين . لكن الذين ألقيت اليهم مقاليد الأمر من بعده، حولوا أتباعه إلى جماعة عسكرية قوية الشكيمة شديدة المراس ، فيها من خصال السباع والوحوش الضارية ما جعلهم نظيرها فى هذه البلاد ، بل الحق أن الشنائع التى اقترفوها وأنواع الفظائع التى ارتكبوها ربما تستحى منها الذئاب المفترسة.

مبروراً وزيارة مباركة ورحلة ميمونة صحب السيد فيها ألوف من الناس . والذين تشرفوا بصحبته فى أثناء الطريق وأفادوا منه ومن أصحابه فى عقائدهم وأعمالهم ، والذين أسلموا على أيديهم من غير المسلمين ، يبلغ عددهم مئات الألوف من الناس . وقد استغرقت هذه الرحلة المباركة قرابة ثلاثة أعوام ذهاباً وإياباً [١] فكانت فرصة طيبة لتربية الأصحاب والأتباع وبث الدعوة ونشر المعارف ومكارم الأخلاق . وكذلك كانت نواة صالحة لحركة الجهاد القادمة . وأيضاً كانت هذه الرحلة الميمونة باباً من الجهاد مستقلا بنفسه ، إذ كان بعض علماء السوء قد أفتى بسقوط فريضة الحج لعدم الأمن وخوف الفتنة فى الطريق. فجاءت رحلة السيد الشهيد فى هذا الجمع الغفير من الخاصة والعامة حجة على أولئك القوم ودليلا ناصعاً على خطأ رأيهم .

وما كاد يستقر المقام بالسيد أحمد وأصحابه حتى تتابعت

---

(١) بدأ بالسفر من مسقط رأسه يوم العيد أول شوال سنة ١٢٣٦ (٢ يونيو سنة ١٨٢١ م) وتشرف بالحج فى ذى الحجة سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) . وبعد ما أقام بالحرمين زهاء عشرة أشهر ، فارق البلد الحرام فى ذى القعدة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) ورجع إلى بلدته سالماً فى شعبان ١٢٣٩ (أبريل ١٨٢٤) .

الأخبار من مقاطعة (بنجاب) باضطهاد السيك للمسلمين وتفننهم في تضييق الحياة على اتباع الدين الحق ، وتجاسرهم على هتك الأعراض وقتل الأبرياء والفتك بالشيوخ والعجزة وتجرؤهم على تعطيل الشعائر وإغلاق أبواب المساجد ، وجملة القول أن عصابات السيك الذين قوى أمرهم بعد ضعف الحكومة المغولية وامتلكوا ناصية الأمر في (بنجاب) وما جاورها من الأقطار قبل رسوخ أقدام الانكليز ، قد بلغت بهم الهمجية والتوحش وحب الانتقام من أبناء الاسلام أن كادت تضيق أرض (بنجاب) بالمسلمين على سعتها، وارتفعت أنات المضطهدين وعلت أصوات المنكوبين والمشردين حتى اخترقت حدود (بنجاب) ووصلت إلى مسامع السيد أحمد وأصحابه وأتباعه الذين كان جل همهم في هذه الدنيا أن ينهضوا بالاسلام من جديد ويستميتوا في إعلاء كلمته ورفع شأنه .

فما كان منهم إلا أن استجابوا لنداء المضطهدين والمستضعفين من إخوانهم ، ولبوا داعي الجهاد والكفاح في الحدود الشمالية الغربية وطاروا إليها زرافات ووحدانا حتى استقروا بها وجعلوها قاعدة حربهم ومركزاً لدعوتهم . ثم بايع المجاهدون المهاجرون — وفيهم صفوة علماء الهند الأعلام كالشيخ عبد الحي ختن

الشاه عبد العزيز والشيخ إسمـــاعيل بن عبد الغنى بن ولى الله وأضرابهما — السيد أحمد بالإمارة والجهاد، وذلك فى ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٤٢ هـ (١١ يناير سنة ١٨٢٧م) . ونشبت المعارك واضطرمت نيران الحرب وتتابعت زهاء أربع سنين ، كان النصر فيها حليف المجاهدين على قلة عددهم وعُددهم ، حتى إنهم استولوا على مدينة بشاور العظيمة وأجروا فيها قانون الشريعة وبدأ الحكم فيها وفيما يلحقها من القرى والأمصار بموجب الشريعة السمحة ، وازداد المجـــاهدون بذلك مهابة وإجلالا فى عيون الأعداء ، كما ازداد المسلمون رجاء وأملا فى أن يعود للإسلام مجده الزاهر لأول مرة فى تاريخ الهند المسلمة ، ولكنه مما يتألم القلب لسماعه وتدمع العين لذكره ولا يكاد القلم يطاوعنى لسرده وبيانه أن هذه النهضة المباركة وتلك الفتوح الباهرة وذلك الأمل المعسول ، كلها ذهبت أدراج الرياح وباءت بالفشل والخسران لما هبَّ على مجتمعهم من رياح الجهل والغفلة ودب فى قلوب أهاليها من دبيب التفرق والخذلان. وبيان ذلك على وجه الإجمال أن علماء السوء والمبتدعة والقبوريين من أهالى الحدود الشمالية الغربية ما أعجبهم تمسك المجاهدين المهاجرين بالسنة النبوية، وما راقهم اعتصامهم بحبل الدين الخالص ونفورهم من البدع

والخرافات ، فنسبوهم إلى الوهابية والمروق من الدين شأن أهل البدع فى جميع الأقطار الإسلامية منذ قرن بل قرنين . وكان ذلك مما جرأ رؤساء العشائر الأفغانية على وضع السيف فى رقاب المجاهدين والفتك بهم غدراً وخدعة ، مدفوعين إلى ذلك بدافع الحرص على الإمارة الفانية، والجمود على رسومهم الوثنية الجاهلية التى أراد المجاهدون إصلاحها وتغييرها، فتحببوا بذلك إلى أمراء السيك والقواد الذين ما انفكوا يتوددون إليهم ويرغبونهم فى حطام الدنيا الدنيئة ، حتى يسهل لهم التخلص من وطأة المجاهدين ، وصاروا فى مأمن من حملاتهم الصادقة القاصمة لظهورهم . وأخيراً أدرك السيك سؤلهم وظفروا ببغيتهم بمعاونة علماء السوء .

ولما كان ما كان من مقاومة علماء السوء وغدر رؤساء العشائر وفتكهم بالأبرياء من القضاة والعمال والعلماء ومن المجاهدين المهاجرين وتوددهم إلى الأعداء غادر السيد ومن معه من المجاهدين الحدود الشمالية الغربية وقصدوا بلاد (كشمير) وأرادوا اللجوء إلى جبالها وكهوفها، إلى أن استحرت معركة شديدة بين الفريقين فى طريقهم إليها ، فى (بالاكوت) — موضع بين كشمير والحدود الشمالية الغربية — استشهد فيها الإمامان والعالمان الجليلان السيد أحمد بن عرفان وإسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله

وذلك يوم الجمعة فى ٢٤ من ذى القعدة سنة ١٢٤٦ هـ (٦ مايو سنة ١٨٣١ م) . وكذلك نال الشهادة فى تلك المعركة عدد غير قليل من المجاهدين من أهل العلم والتقى ، الذين قلما أنجب الدهر أمثالهم فى القرون المتأخرة المظلمة . فلم يكن مشهد (بالاكوت) إلا قضاء على الأمانى والأحلام المعسولة ، وبه دفن الأمل فى استرداد الحكم الإسلامى فى هذه البلاد لمدة من الزمن لا يعلمها إلا الله . اللهم اغفر لهم وارحمهم واحشرهم فى زمرة المجاهدين الأولين الذين هاجروا وجاهدوا مع نبيك محمد ﷺ .

هذا ، ولا جرم أن دعوة الشهيدين كانت إلى إحياء نظام الإسلام الكامل وإقامة الدين وتنفيذ الشريعة فى الأرض ، كما يظهر من رسائل السيد أحمد الشهيد ومؤلفات وزيره ومساعده الأيمن الشيخ إسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله . والأمر أشهر من نار على علم، لايحتاج إلى إيضاح وبيان، ومع أن هذه الحركة الشاملة المباركة لم تنجح فى إقامة نظام الإسلام وتأسيس بنيان الحكومة الإسلامية الراشدة المنشودة ، فانها نجحت وأى نجاح ، فى إيقاظ الحمية الإسلامية وبعث الهمم الراكدة ، فأذكت فى قلوب المسلمين فى هذه البلاد قبس الجهاد والنضال وشحذت عزائمهم للاستماتة فى سبيل إحياء الإسلام ونظمه ، والذى تجده

اليوم من أمارات الاصلاح والتجديد وكل ما نشأ فى مسلمى الهند من الحركات الدينية الخالصة والنهضات المستقيمة الراشدة فى القرن الماضى، يرجع الفضل فيه إلى تلك الحركة المباركة والدعوة الشاملة التى قام بها السيدان الشهيدان والكوكبان النيران وزملاؤهما وأتباعهما وأتباع أتباعهما من بعدهم.

ومن حسنات هذه الحركة المباركة أنها عممت السنة وكثر إقبال الجماهير عليها بفضلها، وقد بلغ أتباع الشهيدين فى اتباع السنة والحرص على اجتناب البدعة أن قام فى وجوههم القبوريون والمبتدعة وأفتوا بتكفيرهم ولقبوهم بالوهابية، لكن أتباع السيد الشهيد قد بالغوا فى نشر السنة المحضة وبث معارفها وتعاليمها واستخدموا لذلك جميع الوسائل المشروع استخدامها. وكيف لا؟ وقد سنّ لهم عالم الجماعة وعلمها الفرد الشيخ إسماعيل بن عبد الغنى ابن ولى الله سنة حسنة بتأليف كتاب (تقوية الايمان) فى التوحيد، الذى أصبح فيما بعد رمزاً للتوحيد وعلماً على اتباع السنة فى هذه الديار. والكتاب فى موضوعه وتأليفه ووضوح بيانه يضارع كتاب تطهير الاعتقاد من أدران الالحاد، لمحمد بن إسماعيل الأمير اليمنى، وكتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب النجدى والدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد لمحمد بن على

الشوكانى — أو يفوق بعضها فى دقة البيـان ونصوع البرهان . نعم قد سن لهم الشيخ إسماعيل سنة حسنة ، فسارت الجماعة عليها من بعده وشعارها نشر السنة واستئصال شأفة البدعة .

الثورة الهندية الكبرى : (١٢٧٣ هـ - ١٨٥٧ م) :

وبينما كانت حركة التجديد والجهاد سائرة بتؤدة ووقار فى داخل البلاد وفيما وراء الحدود الشمالية الغربية ، إذ انفجر بركان الثورة فى الجيش الهندى ، حيث ثارت الجنود وأرادت أن تبطش بالانـكليز بطشة تقضى على سلطتهم فى هـذه البـلاد ، فدامت الثورة بضعة أشهر ، وكاد الثوار ينجحون فى أمنيتهم ويظفرون بعدوهم ، لـكن الأقدار لم تساعدهم ، واستطاع الانـكليز بالجيش البريطانى وبمن بقى معهم من الجيش الهندى ، أن يمسـكوا بخناق الثوار ويطحنوهم طحناً ويفتـكوا بهم فتـكا ذريعاً . وكان ذلك سنة ١٨٥٧ م - ١٢٧٣ هـ .

ثم تتـابعت النـكبات على الأهالى ، ولاسيما المسلمون منهم لأنهم هم الذين كان بيدهم لواء الثورة وكانوا فى طليعـة الثوار فى كل مـكان . وكذلك هم الذين كانوا ملوك هذه البلاد قبل

الانكليز . فمن أجل هذا وذاك ، جعل الانكليز نصب أعينهم أن يقضوا على البقية الباقية من النخوة والحمية فى قلوب المسلمين ، وتذرعوا لذلك بوسائل وأساليب شتى : منها إبعادهم عن مناصب الحكم ووظائف الحكومة ، ومنها إجراء نظام للتعليم لا يوافق طبيعة المسلمين وثقافتهم . وقد بلغ من اضطهاد الحكومة للمسلمين وأهل الرأى منهم أن أصبحت كلمة « الوهابى » عبارة عن الثائر . وذلك أن الجهال والعامة كانوا يلقبون أتبـــاع السيد الشهيد بالوهابية ، وهم هم الذين كانوا فى طليعة كل حركة إصلاحية نشأت بين المسلمين منذ بضع وثلاثين سنة ، فكان من نتيجة كل ذلك أن طرأ الجبن والخوف على المسلمين ، وأصبحوا من أمرهم فى مأزق لا يكادون يخرجون منه . فالحكومة تنظر إليهم بعين الريبة ، وجيرانهم الهنادك انتهزوا الفرصة للانتقام منهم والثأر لأنفسهم .

وكان من جراء الفزع والخوف على مستقبلهم ، واضطهاد الحكومة المتتابع لهم ، أن تحولت حياتهم الدينية والسياسية تحولا كاملا بعد الثورة الكبرى (١٢٧٣ / ١٨٥٧) ، وكأنى بهم أنشئوا أمة جديدة ، لا صلة لها بالأمة المسلمة الباسلة التى نشرت ظلال الأمن والدعة فى ربوع الهند قرونا عديدة ، والتى قاتلت

فى صفوف المجاهدين منذ قريب ، ورفعت لواء الحق وأرادت أن تعلى كلمة الله فى الخافقين .

السيد أحمد خان

ولما أصبح أمر المسلمين على ما ذكرناه من سوء الحال وتشتت البال وتفرق الكلمة والاضطهاد المتتابع من قبل الحكومة ، وذاقوا وبال تلك الحال المحزنة المؤلمة ، قام فيهم (السيد أحمد خان) فأراد أن يسد الثلمة التى حدثت فى حياة المسلمين ، ويرقع الخروق التى ظهرت فى مختلف نواحيها ، وفوق ذلك عزم على أن يزيل سوء التفاهم الذى وقع فى قلوب رجال الحكومة من جهة المسلمين ، ويقرب ما بينهم وبينها من هوة الخلاف .

فنهض (السيد أحمد خان) لهذه المهمة الخطيرة ، وبذل الجهد المستطاع لإكمالها ، وكان من أهل العمل والجد ، على ماله من دالة على رجال الحكومة لما أسدى لهم من معونة فى أحرج أيامهم إبان الثورة ، وصرف جهوده فى إنقاذ كثير من نساء الانكليز ورجالهم من براثن الموت الشنيع . واختار الرجل لذلك طريقة التعليم ، ودعا بنى قومه إلى التهافت على التعليم

العصرى الذى أقبل عليه الهنادك منذ جيلين فتوظفوا فى دوائر الحكومة وأصبحت لهم كلمة مسموعة فيها . فدعا المسلمين إلى التعليم العصرى والاقتطاف من ثمراته الشهية ، وأنشأ لذلك مجلة، وأسس كلية عليكره الشهيرة (١) التى أصبحت فيما بعد كلية كبيرة ثم جامعة عظيمة من أعظم الجامعات العصرية فى الهند . ويا ليته اقتصر على ذلك وحصر دعوته فى ميدان التعليم ، ولكنه — ويا للأسف — قد أخطأ من جهتين ذاقت الأمة ولا تزال تذوق مغبة ذلك إلى اليوم . فقد أضاف إلى الدعوة التعليمية ، الدعوة إلى قبول حضارة الانكليز وطرق معايشهم ومحاكاتهم فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ، وكأنى به أراد أن تصبح الأمة «متكلنزة» تامة، حتى تكون عزيزة مرفوعة الرأس بزعمه. هذه إحداهما . والثانية أنه شرع يفسر القرآن برأيه الفاسد ويحرف الكلم عن مواضعه ويؤول كلام الله وأوامر الشريعة حسب مايجده فى كتب فلاسفة الغرب ومفكريهم من آراء باطلة

---

(١) أسسها سنة ١٢٩٣ ﻫ وعليكره مدينة من مدن المقاطعات المتحدة على مقربة من دهلى ، وما بينها وبين دهلى لايزيد على خمسين أو ستين ميلا .

وأفكار زائفة . فتجرأ على إنكار الرق فى الإسلام وتعدد الأزواج، وولادة سيدنا المسيح من غير أب، ثم جحد المعجزات برمتها وأنكر وجود الجن ، وتجاسر على التحريف الشنيع فى آيات الله المحكمات تجاسراً لا يجترىء عليه رجل له أدنى إلمام بالعربية. ومن البلية أن طريقه فى التفسير والتحريف هذا أصبح سنة لمن أتى من بعده من المحرفين والمبغضين المعاندين للإسلام من منكرى الحديث والقاديانيين وغيرهم من أهل الأهواء والشهوات . ولا يزال فى المسلمين المتفرنجين من يقدس السيد (أحمد خان) ويعده المجدد الأكبر للإسلام فى هذا القطر .

ولا ننكر أن للرجل يداً على مسلمى الهند من بعض النواحى، لكنه خلط عملا صالحاً وآخر سيئا . ويعلم الله أيهما أثقل وزناً وأرجح كفة فى ميزان العدل الربانى؟

دِيُوبَنْد :

وبينما حوادث الثورة الكبرى وما تلاها من الشدائد والأهوال قد أثرت فى السيد أحمد خان وأضرابه من جهة وحفزتهم إلى محاكاة الأنكليز وتقليدهم فى كل شىء ، كان لتلك

الحوادث نفسها تأثير آخر فى قلوب الشيوخ والعلماء ، وكان فيهم من أفتى بوجوب مشاركة المسلمين فى الثورة ، وبقية ممن اشتركوا فى الجهاد تحت لواء السيد الشهيد ، فانهم رأوا فى سياسة الحكومة واضطهادها للمسلمين وانتشار الارساليات المسيحية وتأثر وجهاء المسلمين بفخفخة الانكليز وحضارتهم الفاتنة ، رأوا فى كل ذلك خطراً على الدين ومستقبله فى هذه الديار. فآثروا فتح المدارس الدينية الحرة وتعميم التعليم الدينى المجانى فى القرى والأمصار، بحيث لا تكون للحكومة فيها يد ولا رقابة. فانبثت المدارس الكبيرة والصغيرة فى الجوامع والأبنية الخاصة، كما انتشرت المدارس العصرية فى كل مدينة. وأول مدرسة دينية أسسوها مدرسة ديوبند(١) — قرية بينها وبين دهلى زهاء ستين ميلا — فابتدأت بمدرس وطالب، ثم نمت وترعرعت وتدرجت فى الرقى والاتساع إلى أن أصبحت أكبر مدرسة دينية فى هذه الأقطار. ولا تزال حية باقية تؤدى واجبها على المنهاج القديم لم تتغير ولم تتبدل إلا قليلا. لكن هؤلاء العلماء أخطأوا من جهة أخرى ، فانهم حافظوا على منهاج التعليم القديم العقيم الذى

---

(١) تأسست سنة ١٢٨٣ هـ.

ورثوه عن شيوخهم وشيوخ مشايخهم منذ قرون وأجيال ، ولم يرضوا بأدنى تغيير ولا تبديل فى الكتب والمواد المقررة للتدريس أو طرق الألقاء والأملاء والدرس . وكذلك جعلوا أنفسهم فى عمى عن كل ما يظهر ويتجدد فيما حولهم من الأرض ، وكأنى بهم أرادوا أن يعتصموا بدينهم وعقائدهم ، منزوين فى جوامعهم وزواياهم ، وهيهات أن ينالوا بغيتهم ، فان أعاصير الألحاد والزندقة التى كانت تهب بين جدران الكليات العصرية ، ما كانت لتذر سكان الجوامع والزوايا فى أمنة منها فانهم مهما اجتهدوا فى إغلاق أبواب الجوامع وإيصاد مصاريعها دون زوابع التفرنج والأفكار الأوربية العصرية ، فان هذه الأعاصير داخلة فى بيوتهم وحجراتهم وزواياهم لا محالة . فإنه ليس من قوانين الطبيعة إخماد النيران المضطرمة بالسكون والعزلة ، ولا دفع السيول المتدفقة باللجوء إلى الحجرات والمخادع . وكل من أراد ذلك فقد ارتكب الغلطة الكبرى ، وسيذوق مغبتها يوماً ما لا محالة .

النزاع بين الفريقين :

فأنت ترى أن كلية عليكره التى قام بتأسيسها السيد أحمد

خان ، والتي أصبحت فى ما بعد جامعة كبيرة ، ولا تزال حية باقية رغم الأحوال المتبدلة والظروف القاسية الحاضرة ، وكذلك مدرسة ديوبند التى أصبحت فى ما بعد أم المدارس الدينية ومركزها الرئيسى ، بدأتا سيرهما فى ناحيتين مختلفتين ، كل واحدة منهما تعارض الأخرى وتضادها . وكان من جراء ذلك أن نبتت فى الأمة نابتة من كلا النوعين، كل نوع منهما يكره الآخر ويتجنبه فانتشرت آثار هذا الخلاف بين المنهاجين والتناقض بين الطريقين فى كل ناحية من نواحى الحياة، إلى أن ضاق الشعب بهذا الصراع الفكرى والنزاع الثقافى والأدبى ، ونادى المصلحون والذين لهم نظرة ثاقبة فى المستقبل ، بالاعتدال والأصلاح والجمع بين الفريقين على رصيف واحد . وكذلك أدرك لفيف من العلماء بأنفسهم مافى المنهاج العقيم المتبع فى مدارس الهند الدينية ، من مواضع الخلل ومواطن الضعف والنقص ، فأرادوا أن يسدوا تلك الثلمة ويرأبوا ذلك الصدع . فتهيأ الجو لحركة دينية ثقافية معتدلة بين حركتى عليكره وديوبند المتطرفتين ، على أمل أن تجمع الشمل وتسير بالأمة إلى مدارج الرقى والفلاح .

ندوة العلماء :

وفى هذه الظروف تأسست جمعية (ندوة العلماء) و (دار العلوم) التابعة لها سنة ١٣١١ هـ . أى فى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، بعدما مضى على تأسيس (كلية عليكره) و (مدرسة ديوبند) زهاء ربع قرن ، وانبث المتخرجون فيهما والمغترفون من بحار معارفهما فى جميع أنحاء البلاد . قام بتأسيسها جماعة من فطاحل العلماء وأولى العلم والرأى ممن أحسوا بالخطر الداهم والشر المتفاقم من انتشار الثقافتين المتناقضتين، وشعروا بالحاجة الماسة إلى منهاج معتدل من التعليم والثقافة ينشىء الشبيبة المسلمة على الأخلاق والآداب الاسلامية المرضية ، ويكوّن جيلا من الشباب متضلعاً من علوم الكتاب والسنة ، آخذا بنصيب من العلوم العصرية واللغة الانكليزية ، حتى يكون أهلا لتأدية الواجب الدينى والعلمى على أحسن ما يرجى من الشباب المسلم فى هذا العصر .

دعت هذه الجمعية — ندوة العلماء — فيما دعت إلى الوئام والتقريب بين أبناء الطوائف الاسلامية المستمسكة بتوحيد الله ورسالة خاتم الأنبياء ، ومضاعفة جهودهم ومساعيهم لاصلاح

ذات البين ، حتى يسهل عليهم الأمر فى رد كيد الأعداء والدفاع عن حوزة الحنيفية السمحة التى مازالت تتتابع عليها الحملات بعد الثورة وزوال ملك المسلمين . وكذلك أهابت بالقائمين على المدارس الدينية والمدبرين لشؤونها أن يعدلوا مناهج التعليم عندهم ويسلحوا الشباب بالمواد الجديدة النافعة فى مقررات الدروس ويقللوا من خرافات اليونان البالية التى أكل عليها الدهر وشرب . ثم أسست الجمعية (دار العلوم) فى لكنو تحت إشرافها وجعلت منهاج التعليم فيها جامعاً معتدلا وسطا بين مدرستى (عليكره) و (ديوبند) ، آخذة من حسناتهما بنصيب موفور ، مضيفة إليها حسنات أخرى . ومن خصائص دار العلوم الندوية التى لا تنازعها فيها مدرسة ولا كلية ولا جامعة فى طول البلاد وعرضها، أنها — لأول مرة فى تاريخ الهند الاسلامية — اهتمت بتدريس اللغة العربية كلغة حية إنشاء ونطقا، وندبت لذلك أساتذة من بلاد العرب فى مختلف أدوارها ، كما اعتنت بإرسال الأذكياء من طلبتها ومتخرجيها إلى بلاد العرب ليرتووا من مناهل اللغة العربية ولترسخ فيهم ملكة الأدب العربى وكان من نتيجة كل ذلك أن ظهرت فى الأمة طبقة من العلماء قادرة على الاعراب عما فى ضمائرها بلغة الضاد نطقا وكتابة . ولا تزال دار العلوم التابعة

لندوة العلماء حاملة بيدها لواء لغة القرآن ، باذلة الجهد المستطاع في نشر هذه اللغة الكريمة. وليس معنى ذلك أن مساعيها انحصرت في دائرة اللغة العربية، لا والله، بل هي شاركت في سائر ميادين النشاط الفكري والأدبي . وبفضل جهودها ومنهاج التعليم والتربية في دار علومها ، أنجبت لعالم العلم والعمل طبقة مثقفة معتدلة بين الجامدين والجاحدين . وانتشرت الفكرة الندوية المعتدلة في حقول الدين والأدب والتعليم ، وعمت ، ونالت حظوة لدى الخاصة والطبقة المتوسطة المتعلمة. وكذلك كانت لها يد عظيمة في كبح جماح المتفرنجين وتقريبهم من حظيرة الدين.

حركات سياسية دينية (١٩١١ — ١٩٢٠) :

ظلت هذه الحركات الثلاث مستولية على قلوب المسلمين، مهيمنة على عقولهم وأفكارهم إلى نهاية العقد الأول من القرن العشرين للميلاد - العقد الثالث من القرن الرابع عشر للهجرة - حتى انفجر في بعض أقطار العالم الأسلامي ، بركان الحوادث الدامية التي أقامت المسلمين وأقعدتهم في هذه الديار . ومن أهم ما أثر في نفوس مسلمي الهند فظائع طرابلس الغرب وولايات البلقان التي شوهت وجه المروءة والإنسانية وأبرزت للعالم

ما يكنه الأوربيون عامة والإيطاليون خاصة من العداوة والبغضاء للمسلمين . وجملة القول أن الهند الاسلامية تأثرت تأثرا عظيما بتلك الحوادث المؤلمة ، وقامت فيها حركة سياسية ذات نشاط وحيوية للاتصال بالعالم الاسلامى والعطف على إخوانهم فى سائر الأقطار . فكان ما كان من إقامة المظاهرات وجمع الاكتتابات وإرسال البعثات الطبية إلى غيرها مما لسنا بصدد سرده وإفاضة القول فيه . وإنما أردنا إثباتها فى هذا المقام ، لأنها كانت حركة سياسية منبعثة من عاطفة دينية عميقة . وهذه أول مرة ، نشأت فى الهند المسلمة حركة حيوية بعد الثورة الكبرى وما تلاها من خمود وفتور .

وكذلك لما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وتجزأت ممتلكات الدولة العثمانية ، دولة الخلافة ، وأرادت دول الحلفاء اقتسام البقية الباقية من أجزائها ، قامت الهند الاسلامية قومة رجل واحد ، منكرة على الحلفاء عامة وعلى بريطانيا خاصة ، نقضها للعهود المؤكدة وخطتها العدائية للدولة العثمانية . وكانت حركة جبارة ، أظهر خلالها المسلمون وزعماؤهم من صنوف البسالة والتضحية والجراءة مالم يظهر منهم فى حركة أخرى ، لا قبلها ولا بعدها .

والذين نفخوا فى نفوس الأمة روح التضحية وغرسوا فى أفئدتها غراس التوثب والنهوض والطموح إلى المجد وقادوها إلى ميادين الكفاح والمصابرة والجهاد ، هم كثير ، ولكل منهم يد لا تنساها الأمة ولا ينساها مؤرخ تلك الحقبة المباركة من تاريخ هذا الشعب المنكوب . وإن ننس لا ننسى محمد إقبال الحكيم الشاعر الذى أيقظ شباب هذه الأمة من رقادهم ، ونشأهم على الأفكار المستقيمة الصالحة، ورباهم تربية إسلامية خالصة . وكان شاعرنا وحكيم هذه الأمة فى مقتبل شبابه يومئذ ، فجاءت قصائده فى تلك الآونة شعلة مضطرمة من الحمية الدينية والنخوة القومية ؛ وما زال محمد إقبال برسالته الخالدة يذكى فى نفوس الأمة روح الاعتزاز بالدين ، والاستمساك بالتراث الاسلامى الخالد ، إلى أن انتقل إلى دار الخلود سنة ١٣٥٧ (١٩٣٨) . ومن جلائل أعماله وحسنات جهاده مقـــاومته للطائفة القاديانية فى الآونة الأخيرة من حياته ، بما كان له أثر محمود فى قلوب المسلمين .

كذلك لأبى الكلام شقص موفور ونصيب مرموق فى إذكاء الحماسة فى قلوب الشعب ، وإنعاش الروح الدينية الخامدة فى

نفوسهم . ومن الذى يقدر أن ينسى صحيفته (الهلال)[1] الزاهرة التى كانت نسيجة وحدها فى الصحافة الهندية الاسلامية . وايم الحق انه لم تنجب هذه البلاد حتى الآن رجلا يفوقه أو يماثله فى قوة البيان، فهو رب القلم واللسان بلا مراء، والمجلى فى ميدان الكتابة والخطابة بلا نزاع. هذا عما أسداه من الخدمة إلى الأمة والحق والتاريخ فى هذه الحقبة من الزمان (١٩١١ — ١٩٢٠) التى هى مناط كلامنا فى هذا المقام . أما ما جاء به من الأعمال والأفكار فيما بعد ، وما طرأ على آرائه وسياسته من تغيير وتبديل ، فله مقام آخر ، ولكل مقام مقال .

ويليهما فى التفكير والعلم ويفوقهما فى العمل والجد والكفاح مولانا محمد على[2] ، ذلك البطل المغوار الذى ظل طول حياته مثابراً على الجهاد والنضال، ينافح عن كيان أمته ووطنه، ويدافع عن الاسلام والملة الاسلامية فى سائر أنحاء الأرض. ولعمر الحق

(١) ظهر العدد الأول منها فى يوليو سنة ١٩١٣ ، ثم عطلتها الحكومة بعد سنتين ، فأصدر (البلاغ) فعطلت هذه أيضا بعد قليل واعتقل صاحبها فيمن اعتقل من زعماء المسلمين أيام الحرب العالمية الأولى .

(٢) شقيق شوكت على .

إنه ما دام زمام الأمة بيده وبقيت زعامة الأمة وزعامة زعمائها طوع أمره وإشارته ، بقى دولاب الحيـــاة سائرا نحو البعث الاسلامى الصالح ، وأفـكار الشعب متجهة إلى الغـاية الصحيحة الرشيدة ، ولم يتجرأ أحد من الزعماء ولا من أتباع الزعماء أن يسير بالسياسة الاسلامية سيراً معوجاً ويعدل بها عن المنهـــاج المستقيم. لـكنه، رحمه الله وأفاض على تربته سجال الرحمة والغفران، قد أنهـكه المرض وشيبته الحوادث قبل أوانه، فاستأثرت به رحمة الله وهو لم يتجاوز بعد السنة الثـانية والخمسين من عمره . (١) رحمه الله ، رحمة الأبرار الصالحين من عباده ، ونضر وجهه يوم القيامة .

تبدل الحال وتغير الجو (١٩٢٤ — ١٩٣٠)

ظلت هـــذه الحركات السياسية الدينية ــ حركة مساعدة

(١) توفى فى لنـدن سنة ١٩٣٠ الميلادية ، ودفن في الحرم القدسى الشريف :

أفتى بدفنه عند سيدة القرى مفت أراد الله فى إفتـائه

(شوقى)

المسلمين فى طرابلس الغرب ومواساة منكوبى البلقان وحركة تأييد مقام الخلافة ومؤازرة مصطفى كمال — زعيم الأتراك يومئذ — تعمل عملها . واحدة بعد أخرى ، زهاء عشرة أعوام، تستحث كامن عواطف المسلمين وتستمطر واكف جودهم وأريحيتهم، وكان لها، على ذلك ، أثر محمود فى تبدل الحال الدينية ورجوع الطبقة المتعلمة إلى حظيرة الملة الحنيفية البيضاء وإقبالهم على دراسة الدين المبين. وذلك أن هذه الحركات السياسية كانت منبعثة من عاطفة دينية خالصة، عاطفة مساعدة الاخوان فى الدين ومواساتهم وعاطفة التجلة و « التقديس » لمقام الخلافة ، رمز الوحدة الاسلامية فى الزمن الأخير . فكل من شارك فى هذه الحركات ، شارك متأثرا بتلك العاطفة النبيلة . ومن هنا حدث تغير ملموس مشاهد فى حياته الشخصية وأعماله الذاتية ، وكأن بهذه الحركات قد حدَّت من سورة التفرنج الذى انتشر داؤه وعم بين الطبقة المتعلمة وكسرت شوكتها ، وتجلى فى بادىء الرأى أن جنود الكفر قد انهزمت انهزاماً تاما وأن الهند العزيزة الاسلامية قد رجعت إلى حظيرة الدين بعزم قوى وقلب ثابت .

ولكنه ، ويا للأسف ، لم تمض على هذا التبدل إلا عشية أو ضحاها، حتى ظهر للملإ أن هذا الانقلاب الدينى الذى استبشر

به المصلحون لم يكن غير انقلاب موقت ليس له من قرار ولا ثبات . وذلك أن حركة الخلافة وأخواتها التى سبقتها ، ما قامت ونهضت على أساس فكرى متين ، والذين أقبلوا عليها وخاضوا غمارها ، لم يتفكروا فى مصيرها ومستقبلها ، وإنما كانت حركة عاطفية منبعثة من عاطفة صادقة . ظلت تعمل وتسير فى طريقها ما دامت الحوادث تغذيها وتزودها بشعور متدفق جياش (١)

ولما نضب ذلك المعين الذى كانت ترتوى منه تلك العاطفة ، فتحرك همم المسلمين الخامدة وتثير فى نفوسهم حمية الاسلام، حمية الولاء لمقام الخلافة والذود عن حوزتها، انطفأت الجذوة وركدت تلك العاطفة النبيلة وعادت القلوب الخافقة مضغة هامدة من

---

(١) هذه الملاحظة من المؤلف عظيمة ، وقل من ينتبه لها كما انتبه هو لها . وفى اعتقادنا أن الضعف فى العاطفة الاسلامية تطرق إليهم من ناحية تركيزهم تلك العواطف فى العطف على الدولة العثمانية على أن ذلك أصل فى تلك الحركة ، ولو أنهم ركزوها فى الاسلام نفسه ، ودراسته ، والعطف على كل من يعمل به ويحيى سننه وأحكامه لبقيت تلك النهضة واستمرت تلك الحركة. وفى ذلك عبرة لكل نهضة إسلامية بأن تركز آمالها فى الاسلام نفسه وفى إحياء سننه والعمل بأحكامه وتأييد كل من يساعد على ذلك .

محب الدين

اللحم والدم . وذلك بعد ما ألغى الأتراك نظام الخلافة وقضوا على البقية الباقية من رمز الوحدة الاسلامية .

وكان ذلك الإلغاء مبدأ عهد جديد فى تاريخ مسلمى الهند ، فان عوامل الشر والفساد الفكرى التى كانت قد خفيت واستقرت إبان حركة الخلافة الجبارة خوفا من تيارها الدينى الشديد ، قد تطلعت من جديد وأخذت تتطاول بأعناقها . وبه حدث أول خلاف جوهرى بين أبى الكلام — زعيم القوميين فى ما بعد — ومحمد على [١] ، رحمه الله ، الذى ظل مسلماً مؤمناً بلحمه ودمه ولسانه وقلمه إلى آخر نفس من أنفاس حياته . فان أبا الكلام — وهو عالم «دينى» وصاحب تفسير للقرآن الكريم — قد نشر على أثر ذلك الإلغاء مقالة مسهبة ، قرر فيها «أن هذا الإلغاء فى صالح الإسلام وأن مصطفى كمال لم يأت بشىء يناقض مبادىء الاسلام ، وأن المجلس الملى الكبير صورة صادقة للحكومة الاسلامية الثورية» [٢] الخ الخ . .

(١) شقيق شوكت على

(٢) الذى يعلمه المراقبون فى مصر للحركة الاسلامية فى الهند كانوا يعلمون عن أبى الكلام آزاد حتى في دوره الأول أنه شعوبى وأن مناصرته للترك كانت منبعثة عن نزعة شعوبية أكثر مما هى منبعثة عن نزعة إسلامية، فلما ناصرهم بعد ذلك على مطاردتهم لنظم الاسلام ازدادوا اطمئنانا الى حكمهم على أبى الكلام وعلموا أنه فى واد وأهداف الاسلام في واد آخر محب الدين

أما محمد على ، ذلك المجاهد الصادق ، فبالعكس من ذلك ، ندد بالإلغاء ، وعده شؤما على الإسلام والمسلمين . وانقلب منذ ذلك اليوم ، ناقداً لاعمال الكماليين ، منكراً عليهم سوءاتهم وعداءهم للاسلام . وما زال على ذلك ، حتى لحق بربه واستأثرت به رحمة الله .

وجملة القول أنه كان لهذا الإلغاء المشؤوم أثر غير محمود فى بلادنا ، فقد اشتد به ساعد المتفرنجين والذين فى قلوبهم مرض ، فانهم رأوا فى ذلك فاتحة عهد جديد فى الفكر الاسلامى . ولكنه كان عهداً جديداً للشر وفساد الرأى والفوضى فى التفكير الاسلامى .

هذه بداية التحول من خير الى شر فى مجرى الفكرة الاسلامية ، ثم تتابعت الحوادث تتابعاً أيد جانب المتفرنجين ، وساعد أرباب الاهواء على المضى فى نشر آرائهم وأفكارهم . فمن تلك الحوادث — التى قام لها وقعد ارباب المطامع والشهوات — فتنة (أمان الله) ملك الأفغان السابق ، وتهافته على محاكاة الغرب ، وتقليد الكماليين فى بلاده ، واستمراره على غيه من غير اكتراث لشعور الأمة وعواطفها ، حتى اضطرمت فى بلاده نيران الفساد والفوضى ، وثار الاهالى على الملك ،

فاضطر الى الفرار واللجوء الى بلاد أوربة . فوجد الملاحدة والذين طبعوا على الفساد فى صنيع الملك هذا ، مادة دسمة لنشر أفكارهم الزائغة وبذر بذور الشقاق بين مختلف الطبقات .

وفى تلك الحقبة من الزمان نجم قرن فتنة منكرة ، هى أشد من سائر الفتن التى حدثت حتى الآن وأفدحها شراً ، ألا وهى فتنة إنكار الحديث وجحود السنة النبوية الطاهرة ، مما كان يدعو اليه بعض أصحاب الاهواء « المتعالمين » منذ زمان طويل ، ولكنه نجم قرنه وتفاقم شره فى هذا العصر من جديد ، وأقبل عليه المتفرنجون والمتعلمون الذين فى قلوبهم مرض إقبالا عظيماً . وذلك أن انكار الحديث النبوى يريح أولئك المارقين من كثير من العنت والإرهاق الذى يقاسونه بزعمهم فى إقامة الصلوات الخمس وإيتاء الزكاة وأداء غيرهما من الشعائر الدينية ، ويجعلهم فى مأمن من الاستنكار والتنديد من قبل جمهور المسلمين اذا تهاونوا فى شأنها واستخفوا بأمرها ، كما هو ديدنهم وعادتهم . فترى كثيراً منهم ، كلما لامهم أحد على عدم أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها ، قالوا « لا نعرف لها أصلا فى كتاب الله أو بياناً واضحاً فى شأنها » . وهكذا شأنهم فى كل مسألة أو شعيرة أرادوا أن يتخلصوا منها أو يخلصوا انفسهم من قيودها واغلالها

بزعمهم الفاسد . ومن ههنا تعرف ماذا عسى ان يكون قد ظهر لذلك من أثر سيء ، لولا جماعة من أولى العلم والبصيرة قد انبروا للرد على هذه الطائفة المارقة والكشف عن عوراتها وإيضاح الحق الصريح لمن أراد أن يتعظ أو يتذكر . ولكنه لم يرجع من دعاتهم الى كنف الدين الحق والاذعان للسنة النبوية الزكية الا عدد قليل ممن كان مخدوعاً باضاليل « المتعالمين » وترهات المبطلين . والأغلبية الغالبة من أولئك الضالين ظلت دائبة على نشر الضلال والغض من شأن الرسالة المحمدية . ولا تزال طائفة منهم ممعنة فى غيها وضلالها . وعلى رأسهم رجل موظف فى الحكومة المركزية فى كراتشى ، ينشر آراءه الزائغة فى مجلة شهرية (طلوع إسلام) تحت سمع الحكومة وبصرها ، لكن حكومتنا ورجالها المتشدقين بالاسلام فى كل ناد ومجلس ، لا يهتمون به فى قليل ولا كثير . والذين قاوموا هذه الفتنة فى أول عهدها وأرادوا ان يئدوها فى مهدها ، هم الاستاذ المحقق السيد سليمان الندوى وتلاميذه [1] ، اذ وقفوا مجلتهم الشهيرة

---

(١) وكذلك تصدى للرد عليهم ومقاومة أضاليلهم اليوم ، صديقنا الأديب الشاعر الشهير ، ماهر القادرى ، فقد اتخذ من مجلته الشهرية (فاران) سلاحاً ماضيا لمحاربة جيوش الزندقة والالحاد ، وردكيد أعداء السنة المحمدية فى نحورهم .

(معارف) لاقتلاع جذور هذه الشجرة الخبيثة واستئصال شأفة هذه السوأة المنكرة .

هذا ، وقد كان للتدهور الخلقى والانحطاط الدينى أسباب اخرى ، نشأت فى هذه الفترة ثم ترعرعت ونمت حتى أصبحت مشاكل خطيرة استعصى على النطاسيين حلها . منها تشاجر زعماء المسلمين فيما بينهم . والذى حدث بينهم من السباب والمهاترة والتنابز بالالقاب فى السنتين ١٩٢٥ و ١٩٢٦ ، حينما دخل ابن سعود الحجاز وامتلك ناصية أمرها ، كان له أثر سيء جداً فى نفوس الجمهور ، وزالت بذلك مهابة الزعماء من قلوب الشعب . ومنها ، بل من أهم اسباب الانحطاط الدينى ، غفلة العلماء عن واجبهم ، فانهم ، فى أول الأمر ، ظلوا قابعين فى زواياهم ، غير محتفلين بما يحدث فى معترك الحياة ، حتى رموا بالجمود والتقهقر . وذلك من بعد الثورة الكبرى الى ما قبل حركة الخلافة . ثم أخذوا بنصيبهم من الحركات السياسية واقتحموا معاركها مع المقتحمين ، إلا أنهم نسوا واجبهم الحقيقى وارتطموا فى حمأة السياسة الحزبية القذرة ارتطاما بعد بهم عن موقفهم الاصلاحى ورسالتهم السامية . فلم يكن موقفهم وموقف جمعيتهم (جمعية العلماء) على منهاج من الاعتدال واستقامة الفكر والرأى

فى حالة ما . وكان له ما بعده فى مجرى الفكرة الاسلامية فى هذه البلاد .

ومما أيد جانب المتفرنجين والدعاة الى الانطلاق من القيود سياسة «المؤتمر الوطنى الهندى» الجديدة ، فان زعماءها — وعلى رأسهم غاندى — بدأوا يجنحون الى القومية الهندية المتطرفة التى لا تعترف بثقافة المسلمين المستقلة وكيانهم الشخصى الممتاز بل ترى أن جميع سكان الهند أمة واحدة من أرومة واحدة . وهذه النظرية دعوة جلية للمسلمين الى الاندماج فى القومية الهندية والانسلاخ عن آدابهم وثقافتهم ولغتهم وعاداتهم وكيانهم الممتاز . فابى ذلك جمهور المسلمين ومن بايديهم أزمة أمورهم؛ وعلى رأسهم مولوى محمد على رحمه الله ، زعيم زعماء المسلمين فى عصره . وانحاز الى المؤتمر الوطنى ونظريته القومية عدد غير قليل من المسلمين القوميين وعلى رأسهم أبو الكلام ، العالم الكاتب الخطيب الشهير ، وان كان يؤول صنيعه تاويلا من أنه «لا يقول بالقومية الهندية المشتركة ، وانما هى قومية دفاعية بازاء الانكليز» ، لكن أتباعه ما كانوا كلهم علماء ، وانما اشتركوا فى المؤتمر الوطنى مذعنين لنظريته القومية . فكانت

النتيجة أن الفئة القائلة بالقومية الهندية المشتركة وقبول الآداب والأخلاق الهندية الخالصة ، أخذت تميل إلى نوع من الإلحاد والتحرر من قيود الدين والأخلاق « الثقيلة » بزعمهم .

وكذلك قامت بإزاء ذلك حركة قومية إسلامية تدعو إلى مقاطعة المؤتمر الوطنى الهندى ، وتأسيس جمعياتهم السياسية على نظرية القومية الإسلامية المستقلة ، فأسسوا جمعية (مؤتمر المسلمين Muslim Conference) انضوى تحت لوائه كل من انقطع عن المؤتمر الوطنى الهندى ورغب فى مقاومته ومناهضة سياسته المعادية للمسلمين ، ولكنه لم يكن له نفوذ كثير فى أول الأمر ، وذلك لوفاة محمد على رحمه الله وعدم إخلاص القائمين بهذه الجمعية الجديدة وضعف جرأتهم عن الوقوف فى وجه الحكومة . وعلى كل فان هذا التبدل وانقسام المسلمين إلى الحزبين وانتشار الشقاق والخلاف فى شؤونهم كان له أثر غير قليل فى إضعاف الروح الدينى وإطفاء جذوة الحماسة الدينية .

على عتبة الانقلاب الحديث (١٩٣١ - ١٩٣٧) :

الآن وقد وصلنا إلى عتبة الانقلاب الحديث ، يجمل بنا أن نلم بالعوامل التى أفضت إلى هذا الانقلاب الذى انتهى بتقسيم الهند

إلى باكستان وهندستان . وبيان ذلك أن الانكليز منذ أول عهدهم فى الهند أرادوا أن ينفذوا فيها النظام البرلمانى السائد فى بلادهم . والحال أن نظامهم البرلمانى يوافق طبيعة البلاد التى تسكنها أمة متحدة فى الثقافة والأخلاق واللغة . والتى يمكن فيها لأقلية أن تتحول إلى أغلبية بعد سعى متواصل ودعاية واسعة . أما أمثال بلادنا الهندية المأهولة بأمم وشعوب متضاربة فى الدين والأخلاق والثقافة واللغة ومناهج العيش ، فلا يلائمها هذا النظام البرلمانى البتة. فان هذا النظام الذى يقول بمبدإ «الحكم للأغلبية» يكون معنى تنفيذه فى مثل هذه البلاد أن يكون الحكم للأغلبية الطائفية المتعصبة ، وتبقى الأقلية الدينية الثقافية أقلية مقهورة ومغلوبة على أمرها إلى الأبد . ولكن العجب كل العجب أن أحداً من الساسة البريطانيين أو أذنابهم لم يتنبه إلى هذا الجانب المهم من المسألة ولم يعره أدنى التفات . زد على ذلك أن زعماء المسلمين أنفسهم لم يتفطنوا لهذا الضعف الكامن فى هذا النظام أو لم يتجرأوا على انتقاده والكشف عن مواطن ضعفه ، إما لما اعتقدوه من عصمة الانكليز فيما يأتون به من دستور وقانون ، أو لما استولى عليهم من الذعر والخوف من سلطتهم القاهرة . وكل ما أقدموا عليه بهذا الصدد فى بداية النهضة القومية فى مفتتح

هذا القرن هو أن لا تنتقل سلطة الأمر والتشريع إلى أهل البلاد ويبقى زمام الأمر والحكم بيد الأجانب ، حتى يكونوا فى مأمن من عنت الأغلبية وغلواتها الطائفية .

ثم قامت حركة الخلافة وشاركهم فيها الهنادك وتعاونوا فيما بينهم على المضى فى حركة الاستقلال والتخلص من نير الاستعمار فلم يهتموا بهذا الجانب من المسألة فى قليل ولا كثير ، إلى أن ظهر من نيات الهنادك ما كان خافيا، وبدا من مكنونات نفوسهم ما كان مستترا . فجعلوا يطالبون بالحقوق والضمانات فى المجالس النيابية ودوائر الحكم ، ولم يشعروا بأن النظام النيابى البرلمانى الرائج فى انكلترا وغيرها من بلاد أوربا لا يصلح لهـــذه البلاد ، وأن الضمانات المكتوبة والوعود المقطوعة المسجلة لا تسمن ولا تغنى من جوع أصلا . وكان ضغثا على إبالة ظهور طبقة من المسلمين القوميين المساعدين للمؤتمر الهندى تدعو إلى المشاركة فى حركة الاستقلال ومؤازرة المؤتمر الوطنى من غير قيد ولا شرط . وتقول لمن يناقشهم من إخوانهم فى هذه الخطة «ما لنا نساوم على الغنيمة قبل الحرب ؟ إن ذلك لعار علينا أبد الدهر» .

هذا ، وان هوة الخلاف بين المسلمين القوميين ، الداعين إلى

مؤازرة المؤتمر الوطنى الهندى من غير شرط ، وبين القائلين بالقومية الإسلامية ومقاطعة المؤتمر الهندى ، بدأت تتسع يوماً بعد يوم والمصادمة بين الفريقين تزداد وتشتد كل صباح ومساء . إلى أن بلغ الصراع بين الفريقين مبلغاً بكى له الصديق ورثى له العدو الشامت .

ثم انه لما تولت الوزارات الوطنية زمام الحكم فى سبع مقاطعات سنة ١٩٣٧ ، بدا من سوء معاملتها لبنى الإسلام مابدا، وتجلى من عدم اكتراثها لمطالب الأقليات ما تجلى ، واشتدت وطأة حركة المقاومة للمؤتمر الوطنى الهندى وارتفع شأن جمعية « الرابطة الاسلامية » بزعامة السياسى المحنك والقانونى البارع ، محمد على جناح . وكذلك غلا فريق من المسلمين القوميين فى تأييدهم للمؤتمر الوطنى الهندى وأعرضوا عن مطالب المسلمين ولم يحتفلوا بها فى قليل ولا كثير . ومما يبكى له قلب كل مسلم أن جمعية العلماء التى كانت مناط آمال المسلمين ومهوى أفئدتهم ، أيدت جانب أولئك الغلاة وآثرت الانقطاع عن جمهرة المسلمين الذين انضووا تحت لواء الرابطة الاسلامية وزعيمها محمد على جناح . وكان من تأثير كون جمعية العلماء فى الجانب الآخر أن الرابطة الاسلامية ورجالها البارزين شرعوا يطعنون فى العلماء وينتقدون

عليهم خطتهم المعوجة ، ثم تقدموا خطوة أخرى وجعلوا يطيلون لسان القدح فى الدين وشعائره . ولم يكن من ذلك بد فى مثل تلك الظروف والأحوال ، لأن معظم رجال الرابطة الاسلامية كانوا ممن تخرجوا فى الكليات العصرية ، ولم يكن لهم سابق علم ولا معرفة بالدين ومبادئه ونظمه الخالدة ، فإنهم لما رأوا العلماء، حملة الدين فى هذا العصر ، يؤيدون جانب القومية الملعونة ويؤثرون الانضمام إلى صفوف الهنادك ، أساءوا الظن بالدين نفسه ولم يتحرجوا من الاستخفاف بأصوله وأحكامه . فلا جرم أن خطة أعضاء جمعية العلماء هذه ، كانت شؤماً على الاسلام والمسلمين فى هـذه الديار ، فذاقت الأمة ولا تزال تذوق مغبتها إلى اليوم ، وكانت من أكبر البواعث التى جرأت أنصار الـكاليين والمسلمين الجغرافيين من أعضاء الرابطة الاسلاميـة على الطعن فى الدين والقدح فى شأنه .

وصفوة القول أن هذه الفترة (١٩٣٠ — ١٩٣٧) لم تـكن خيراً من التى قبلها ، إذا تأملنا من الوجهة الدينية ، فانه قد نجم فيها قرن المسلمين الجغرافيين — حسب الاصطلاح الشـائع — وكثر طعنهم فى الدين وشعائره ، وتفاقم خطبهم واستفحل شرهم ،

ولم يبق من السهل الميسور الرد عليهم والكشف عن مخبآت نفوسهم ، لأنهم حببوا أنفسهم إلى قلوب الأمة ونزلوا منها منزلة احترام وتجلة، لوقوفهم فى وجه المؤتمر الوطنى الهندى ومقاومتهم العنيفة للهنادك .

وقد كثر سواد هؤلاء المسلمين « الجغرافيين » أو المسلمين بالوراثة وزاد عددهم فى صفوف الرابطة الاسلامية، لأنها لم تشترط لعضويتها والانضواء تحت لوائها، إلا أن يكون الرجل متسما بالاسلام، مسجلا اسمه فى الاحصاء . سواء عليه أكان شيوعياً أو إباحياً أو ممن لا خلاق لهم من المروءة والشهامة . فالعبرة عندهم بالاسم ، لا بما يحمله صاحب الاسم من العقيدة أو يتحلى به من محاسن الأخلاق . وكذلك بلغ من غلواء الدعاة إلى القومية الهندية المشتركة ماجعل أولى العلم والرأى على حذر من جانبهم ، فان هذه الدعوة إلى الثقافة المشتركة ومناهج العيش المتحدة قد صرفت بعضهم إلى العهد الأكبرى الممقوت [١] ، وسولت لهم أنفسهم أن يستعيدوا ذلك العهد الذى بلغت فيه الدعوة إلى الامتزاج الدينى والثقافى أشدها .

---

(١) راجع الصفحة الـ ١٩ من هذه الرسالة وما بعدها

دعوة إسلامية خالصة ١٣٥٢ (١٩٣٣) :

فى مثل هاتيك الأحوال ، ظهرت دعوة إسلامية خالصة ، بريئة من نزعات القومية الهندية المشتركة ، طاهرة من شوائب النزعات القومية الاسلامية الجغرافية . ظهرت هذه الدعوة فى وقت بلغت فيه المصارعة بين الفكرتين أشدها ، وتقسمت الأمة الاسلامية الهندية إلى فئتين ، كل واحدة منهما تعادى الأخرى وتضادها ، كما تقدم . ولا يدرى إلا الله ، ماذا عسى أن يكون قد انتهى إليه هذا النزاع والصراع ، لولا ظهور هذه الدعوة المباركة إلى الدين الخالص .

وقام بهذه الدعوة رجل مؤمن من هذه الأمة ، عالم بكتاب الله وسنة نبيه ، مطلع على ميول العصر ونزعاته ومقتضياته ومطالبه ، بصير بأدواء الأمة وعللها . شرع فى هذه الدعوة ، الدعوة إلى الدين الخالص وإحياء مآثره ونظمه وإقامة شعائره والإذعان للشريعة الألهية فى كل صغير وكبير من شؤون الحياة ، بإنشاء مجلة شهرية (ترجمان القرآن) تعنى بنشر هذه الفكرة ، فكرة الإسلام الشامل ، وإذاعة خصائصها ومحاسنها وتبيين أصولها وفروعها حتى يقبل الناس عليها وهم على بصيرة من أمرهم ، ويلبوا

الدعوة بأعماق صدورهم وقلوبهم .

شرع فى هذه المهمة الجليلة الأستاذ السيد (أبو الأعلى المودودى) رئيس تحرير مجلة ترجمان القرآن ، من بداية سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣) ، وأخذ يبث أفكاره ويوضح تعاليم الاسلام الخالدة ونظرياته السديدة فى الحكم والعمران والاقتصاد والسياسة التى غفل الناس عنها ولا يكادون يؤمنون بها إيماناً صادقا ، ومن أجل ذلك جعل من همه فى أول الأمر أن يقف قلمه السيال على إبراز فكرة الاسلام الحقيقية وتصوره للكون والعالم ونظريته فى علاقة الانسان بربه ومنزلته فى هذه الدنيا . وكذلك صرف مجهوده وهمته فى الكشف عن العلل والأدواء التى لصقت بأفكار المتأخرين الجاحدين من علماء الأسلام ، فجعلتهم لاينظرون إلى الدين الكامل ، إلا كما ينظر البوذى إلى ديانته منحصرة فى جملة من العقائد والعبادات ، ولا صلة لها بشؤون الحياة ونظمها العديدة المتشعبة . وعلى غرار ذلك، أخذ على المتجددين الذين تشبعوا بأفكار الغرب وآرائه الباطلة المزخرفة، تنكبهم محجة الشريعة الخالدة وجهلهم لمبادىء الاسلام وأسسه المتينة وتهافتهم على الأفكار المستوردة من الغرب من غير فهم ولا تبصر .

وفوق كل ذلك بين بأساليب متعددة وطرق متنوعة ، أن الاسلام دين متكامل شامل محيط بجميع شعب الحياة وفروعها ، لا يند عنه شيء ، ولا يشذ عن دائرته جزء ؛ وذلك لما رسخ فى أذهان القوم من أن الدين عبارة عن مجموعة من العقائد والعبادات ، ولا علاقة له بشؤون الحياة العامة البتة . وكان ذلك — كما لا يخفى — فى قرون الجمود والتقهقر الأخيرة التى ركدت فيها أمواج الفكر الاسلامى وعقمت القريحة الاسلامية بأسرها . ومن ههنا أحسن الأستاذ المودودى فى تبيين هذه الحقيقة وتثبيتها فى قلوب الناس بأسلوبه المقنع البليغ الذى لم يطلع عليه رجل منصف إلا اطمأن إليه وسكنت إليه نفسه .

وكذلك لفت أنظار الأمة إلى حقيقة أخرى مهمة ووجه أنظارهم إليها توجيها ، وبيانها أن هذه الدعوة التى يقوم بها على فترة من الزمن ، إنما هى دعوة إلى الأسلام نفسه لا إلى القومية . وبينهما فرق عظيم ، لا يخفى على اللبيب المتبصر . فانه لا يهمنا أن تتكون فى قطر من الأقطار دولة قومية إسلامية كالتى فى تركيا وأفغانستان وإيران ومصر وغيرها ، وإنما نريد دولة إسلامية تذعن للقانون الإلهى وتأتمر بأوامر الشريعة الإلهية . وإن دولة يرأسها ملك مسلم أو يسير دفة شؤونها وزراء مسلمون ، لا تعد

بمجرد ذلك دولة إسلامية . فالحكومات الاسلامية الهندية الماضية لم تكن إسلامية فى قليل ولا كثير . وكذلك حكومات المسلمين والممالك الاسلامية المنتشرة اليوم فى افريقيا وآسيا ، ليست من الدولة الاسلامية فى شىء . وذلك أن الاسلام دين متكامل له أصوله ومبادئه ودستوره للحكم وقوانينه للسلم والحرب وسائر شؤون الحياة، فمن أراد أن يأخذ بالاسلام، فليأخذ بجميع أجزائه وشعبه ، ومن أراد أن يدخل فى الاسلام ، فليدخل فى دائرته بجميع حياته. فالمسلمون الجغرافيون أو المسلمون بالوراثة الذين لا يقبلون الاسلام دستوراً لحياتهم وقانوناً لدولتهم، ليسوا من الاسلام بالمنزلة التى يريدها الله منهم ويفرضها على عباده . ولما كانت هذه الناحية أيضاً قد خفيت على كثير من الناس والتبست عليهم مذاهبها واستبهمت مسالكها ، اهتم صاحب مجلة (ترجمان القرآن) بوجه خاص ، بإبرازها للملإ وتبيينها للناس ، حتى تجلت لهم وظهرت أمام أعينهم حقيقة ثابتة خالدة، لاريب فيها ولا مراء .

وكذلك (العبودية لله) — التى هى لباب الدعوة وملاك أمرها، والتى تدعو الناس إلى إقامة نظم الحياة على أسسها المتينة المحكمة — لها معنى خاص ومفهوم معين، بينه الأستاذ المودودى

تبييناً وأوضح، إيضاحاً فى مختلف مؤلفاته ومقالاته، حتى لايذهل عنه أحد. وذلك أنه ليس لكل رجل أن يعبدالله حسب مايشاء ويبتغى، بل الأمر أن للعبودية والعبادة صورة واحدة مخصوصة، هى اتباع الشريعة التى جاء بها النبى الأمى محمد بن عبد الله ﷺ فلا يجوز لمسلم أن يرد منها ما يشاء ويختار منها ما يريد، وذلك أن الاسلام عبارة عن الاذعان الكامل للشريعة المحمدية. والوسيلة إلى العلم بالشريعة ليست بمنحصرة فى كتاب الله، بل السنة النبوية والحديث النبوى أيضا من الوسائل الأساسية للعلم بالشريعة. وليس من طريق الاستدلال من كتاب الله وسنة نبيه أن يسخرهما المرء لأهوائه ونظرياته، وإنما الطريق الصحيح للاستخراج من ذينك الينبوعين أن يجعل المرء نظرياته وآراءه تبعاً لأوامر الله ورسوله ﷺ. وكذلك لسنا من القائلين بالتقليد الجامد الذى لا متسع فيه للاجتهاد وتحرى الحق والصواب، كما لانقول بالاجتهاد «الكاذب» الذى يرفض أقوال السلف جميعاً ويسحب ذيل النسيان على أفكارهم ومجتهداتهم.

لقد بين صاحب مجلة (ترجمان القرآن) هذه الحقائق، وفصل القول فى شرحها وإيضاحها، نظراً لما يكتنف الفكر الاسلامى المعاصر فى هذه البلاد من الغموض والابهام والجمود والجحود.

ومن ثم كان من أول واجبات الداعي إلى الفكرة الاسلامية الخالصة أن يزيل ذلك الغموض والابهام ويقضى على جراثيم الجحود وينبه الجامدين من نوم الغفلة ، حتى تصير أفكار الذين يلبون الدعوة ويتأثرون بها مستنيرة ناضجة، وعقولهم متنورة، وتصبح سبل العمل ومناهجه أمامهم واضحة جلية .

المرحلة الأولى من الدعوة (١٣٥٢ — ١٣٦٠ – ١٩٣٣ - ١٩٤١)

فأنت ترى أن الأستاذ السيد أبا الأعلى المودودى عنى - فى أول ما عنى به - بتكوين فكرة صادقة سليمة للاسلام ونظمه ، واهتم - فيما اهتم به فى السنين الأولى من بدء مهمته - بانتقاد الآراء الزائغة والنزعات الجانحة عن الصواب ، والكشف عن مواطن الضعف فى تصور القوم للاسلام وفكرته الشاملة. فألف وكتب ونشر حتى واصل سواد ليله بنهاره وانقطع إلى الدرس والمطالعة والكتابة وثابر عليها بضع سنين ، من غير أن يجاهر بما فى نفسه من اعتزامه القيام بحركة شاملة لإحياء الاسلام وإقامة دينه فى أرضه ، إلا أنه أشار فى ثنايا مقالاته إلى أن الاسلام دين ولا يمكن أن يحي حياة كريمة مستقلة فى ظل دين أو نظام آخر. فمن آمن بكونه دينا شاملا ، فلا مندوحة له عن الجد والكفاح

فى سبيل إعلاء كلمته وإقامة نظمه.

ظل مشتغلا بمهمته هذه، مكبا على عمله، ينشر آراءه وأفكاره فى مجلته الشهرية (ترجمان القرآن) بانتظام، حتى تطلعت أعناق الناس إليها وتأثرت طبقة غير قليلة من المتعلمين الجدد بمقالاتها القيمة المقنعة، لأنهم آنسوا فيها شيئا جديداً مبتكراً غير ما تعودته نفوسهم فى المجلات والكتب الدينية الرائجة، ووجدوا رجلا بصيراً بنزعات قلوبهم ونزعات أفكارهم، يصف الداء للأدواء الكامنة فى نفوسهم وعقولهم ويضع البلسم الشافى على جروح دامية أصيبوا بها فى عقائدهم.

ظل مكباً على هذا العمل النافع المثمر بضع سنوات، حتى تولت الوزارات الوطنية الهندية الأمر فى سبع مقاطعات، بعدما انتقل إليها نوع من الحكم، وظهر من نيات القائمين عليها ما كان مستترا، وتجلى للعيان من كبريائهم وغطرستهم ما تجلى، وتبين من اضطهادهم للمسلمين وعدم الاكتراث لمطالبهم ماجعل أولى العلم والرأى على حذر من مستقبل الأمة المسلمة فى هذه البلاد، وذلك فى يوليو سنة ١٩٣٧ للميلاد. وكان من نتيجتها أن اشتد الخلاف بين الفريقين من المسلمين — كما تقدم فى ماسبق —

كل واحد منهما غافل عن خطورة الموقف والخطر المحدق بكيان الأمة : فاضطر رئيس تحرير مجلة (ترجمان القرآن) أن يجرد قلمه السيال للكشف عن عورات المؤتمر الوطنى الهندى وإماطة اللثام عن خفاياه وإنذار المسلمين بخطورة الموقف والإهابة بهم للتهيؤ للمستقبل العبوس. فشرع فى سلسلة مقالات متتابعة امتدت زهاء ثلاث سنين ، منقسمة إلى ثلاثة أدوار :

ففى الدور الأول من تلك السلسلة من المقالات ، استعرض تاريخ المسلمين فى هذه البلاد ، وأشار إلى مواطن الضعف فيما مضى من أعمالهم وسياستهم التى أفضت بهم إلى هذا الدرك الأسفل من التقهقر والانحطاط. ثم تطرق فى نهاية هذا الدور إلى الشروع فى حملاته المعروفة على المؤتمر الوطنى الهندى ونزعته اللادينية ، إلى أن بلغت هذه الحملات المتواصلة المنكرة أشدها فى الدور الثانى من هذه السلسلة . وأهم ما اهتم ببيانه الأستاذ المودودى فى تلك المقالات ، أن القومية الهندية المشتركة والسياسة الجمهورية اللادينية القائلة بالحكم للأغلبية لا توافق طبيعة هذه البلاد ، وأنها — إن نفذت — ستقضى على كيان المسلمين وثقافتهم وأخلاقهم ، وأن المسلمين يكون مثلهم كمثل من يوقع على حكم

إعدامه ، إذا أبدوا رضاهم أو سكتوا عن هذا النظام الجمهورى الذى يريده الانكليز ويحب الهنادك تنفيذه فى هذه البلاد. ولقد شهد الجميع من بين مادح وقادح ، أن هذه المقالات انقضت على على رءوس القائلين بالقومية المشتركة كالصاعقة ، وأنها هى التى قصمت ظهر المؤمنين بمؤازرة المؤتمر الوطنى الهنـــدى من بين المسلمين، وأنه لولا حملات المودودى على المؤتمر الوطنى الهندى لما قامت للرابطة الاسلامية قائمة ولما ارتفع لها شأن .

هذا ، وفى تلك الغضون بلغت الرابطة الاسلامية أوج مجدها ومنتهى رقيها وجعل زعماؤها يبدون عما فى ضمائرهم من الافتتان بالغرب والنزوع إلى التركية الكمالية ، حتى تبين من أقوالهم وأفعالهم أن حركة القومية الاسلامية التى تدين بها الرابطة الاسلامية ، والتى لا تشترط لعضويتها إلا أن يكون اسم العضو مسجلا بين المسلمين فى ديوان الاحصاء ، لو تركت هذه الحركة وشأنها وظل القائمون بها ينشرون أفكارهم الزائغة وآراءهم المعوجة ، لذهبت بالبقية الباقية من التراث الاسلامى فى هذه الأمة البائسة ، ولم يبق لنا أمل فى إحياء نظم الاسلام وإقامة الدين . فاذن لم يكن بد من القضاء على هذا الشر قبل اشتداده وتفاقمه

وقطع دابر هذه الفتنة قبل أن يستفحل أمرها ويتسع الخرق على الراقع .

ومن ههنا شرع الأستاذ المودودى فى الدور الثالث من تلك المقالات، وشرح فيها مفاسد القومية الاسلامية والنزعة الاقليمية والنزغات العنصرية ، كما بين لهم من قبل مساوىء القومية الهندية والسياسة الجمهورية اللادينية . فكان ذلك مبدأ الخلاف بين المودودى وبين زعماء الرابطة الاسلامية الداعين إلى الانفصال عن القومية الهندية وتأسيس مملكة إسلامية . فانه لما شاهد بأم عينه أن الدعاة إلى المملكة الاسلامية المستقلة يستخفون بالدين وشعائره ، ويتجاهرون بافتتانهم بالغرب وولوعهم بالكماليين وأن مملكتهم التى يريدون تأسيسها ، لاتكون إلا مملكة جمهورية لادينية ، كما تشهد بذلك سياستهم وخطتهم العملية — لما شاهد كل ذلك شمر عن ساق الجد وانبرى للكشف عن سوءات تلك القومية الإقليمية والعصبية العنصرية وضررها بالاسلام والمسلمين وشرح للأمة فى بيانه المبدع الرائع وحججه القوية المفحمة مبينا لها تبييناً فى مقالات متتابعة ، أن هذه النعرة الاقليمية العنصرية وتلك النزعة الافرنجية الكمالية تناقض مبادىء الاسلام وقواعده المحكمة ، وأن هذه المناهج الغربية فى سياسة القوم ، وهذا التبرج

فى مجالسهم ومؤتمراتهم ، وتلك الإباحية ونزعات الالحاد بين صفوفهم، ستهوى بالأمة وأمانيها وآمالها إلى درك سحيق من الخيبة واليأس والخسران ، وأنهم مهما أدركوا باتباع هذه السياسة اللادينية وتلك الخطة القومية من ملك وسلطة، فانهم لن يدركوا غاية الاسلام أبداً بهذه الطريقة المعوجة . فان لكل غاية طريقة توصل إليها ، وكذلك للوصول إلى مثل الاسلام العليا طرق ومناهج معروفة محدودة ، لن يصل إليها أحد إلا بواسطتها وبالسير عليها . فما رأيك فى رجل يريد الوصول إلى بيت الله الحرام ، ثم يولى وجهه شطر اليابان ويركب الباخرة التى توصله إليها؟ وماذا عسى أن يكون رأيك فى مثل هذا الرجل ؟ وكيف يسوغ لجمعية من المسلمين تتشدق بالاسلام لاستمالة رأى الجمهور وتحبيبها إلى نفوسهم ، ثم تأتى بأعمال ومناهج تعارض الاسلام وتناقضه ؟ وكيف يجوز لمؤمن بصير بالعواقب أن يسايرهم فى سياستهم الباطلة وخطتهم الزائغة ؟ هذه واحدة .

والثانية أن الدعوة إلى القومية الاسلامية والاستقلال الذاتى للمسلمين فى المناطق التى لهم فيها أغلبية عددية ، عملا بالمبدإ الجمهورى « الحكم للأغلبية » ما كانت لتحل قضية المسلمين فى هذه القارة الصغيرة ، فانه ، بعد ماتمنح تلك المناطق الاستقلال،

يبقى فى الهند الهندوكية زهاء نصف عدد المسلمين فى هذا القطر ، وهم يكونون يومئذ — كما هو مشهود اليوم — أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام . ومن ههنا قام الأستاذ المودودى بدعوة الاسلام الخالصة ، وبين للأمة أن قيامهم بواجب شهادة الحق وبذل الجهود فى نشر الدعوة الاسلامية المنزهة عن أدناس القوميتين الوطنية والعنصرية ومفاسدهما ، هو الذى يمكن أن يخرجهم من هذا المازق الحرج ويحل مشكلتهم حلا يرضى الله ورسوله وتطمئن إليه خواطرهم . فانهم ، يوم جاءوا إلى هذه البلاد ، قبل ألف سنة فصاعداً ، لم يكن لهم فيها عدد أو عدة ، وإنما رسخت أقدامهم فيها وكثر عددهم واتسعت ممالكهم وتغلغل نفوذهم وانتشرت آدابهم بفضل العلماء والصوفية الذين قاموا بفريضة «شهادة الحق»[1] القولية والعملية . ولولا تقاعس الملوك والقواد عن هذا الواجب واشتغالهم بأمور الملك وانقطاعهم اليها لما كان فى هذه الأقطار وجود لمشاكل الأقلية والأغلبية . ولعمر الحق انه لو استعد المسلمون اليوم استعداداً حقيقياً ،

---

(١) من شاء الزيادة من معنى (شهادة الحق) وشرحها وبيانها ، فعليه أن يراجع رسالة (شهادة الحق) للأستاذ المودودى .

وقاموا بواجب شهادة الحق قياماً يعرف به سكان هـذه القارة — على اختلاف أذواقهم ومشاربهم — أن هؤلاء المسلمين ليسوا بأمة وحسب بالمعنى الذى نفهمه من هـذه الكلمة ، وإنما هم أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم الصلاة وتبث محاسن الأخلاق ، لا تتعصب لسلالة أو وطن أو قومية ، وإنما قولهم « إن الناس كلهم بنو آدم ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ومكارم الأخـــلاق » . نعم ، لو تنبه المسلمون اليوم لهـذه الحقيقة وتبرأوا من القوميات الملعونة والعصبيات الضيقة المحدودة التى كان رسول الله ﷺ يسميها «بنيات الطريق» وقدموا أنفسهم للعالم أمة مسلمة داعية إلى الحق آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، لتبدلت الأرض غير الأرض وتغيرت نوعية المشكلة، وتخلص المسلمون من هذا المأزق الذى وقعوا فيه ولا يكادون يخرجون منه . وقديماً فتح المسلمون البلاد وملكوا أزمة القلوب وامتلكوا ناصية الحكم واستولوا على مشاعر أهلها بتلك السياسة العـــادلة ، وأداء شهادة الحق والتحلى بمحاسن الآداب والأخلاق، فما الذى يمنعهم أن ينتهوا إلى معالم أسلافهم وماذا يعوقهم اليوم عن اقتفاء آثارهم .

لقـد شرح الأستاذ المودودى نظريته هذه ، وفصل القول

القول فيها تفصيلا فى سنة ١٩٣٩ إبان حركة القومية الاسلامية ، فانه بين للقوم تبيينا وأوضح لهم إيضاحاً أن المسلمين ليسوا أمة — كالألمان أو الانكليز أو الهنادك مثلا — تنتمى إلى عنصر مخصوص أو تنتسب إلى أرض بعينها ، وإنما المسلمون حزب ذو فكرة ومبدإ ، لا ينحصرون فى أرض أو سلالة ، فلهم أن يجذبوا الهنادك إلى حزبهم العالمى ، ذى الفكرة السامية والنظرية العالمية الشاملة ، كما جذبهم أسلافنا من قبل .

ومما لابد من الاعتراف به أن الأغلبية الغالبة من الأمة ماقبلت هذه الفكرة ، بل آثرت نظرية القومية الاسلامية بازاء القومية الهندية، إلى أن صادق مؤتمر الرابطة الاسلامية سنة ١٩٤٠ على القرار المعروف الذى انحصرت غايتها بموجبه فى تأسيس مملكة اسلامية مستقلة . وما ان مضى على هذا القرار سنة كاملة حتى تبين للجميع أن المسلمين قد اتخذوا (باكستان) هدفاً قوميا لهم يطمحون إليه بأبصارهم ويتطلعون إليه شوقاً .

تأسيس الجماعة الاسلامية : (١٣٦٠ / ١٩٤١) :

وبعد ماتجلى للعيان أن أغلبية الأمة ما تقبلت نظرية الاسلام الخالصة بقبول حسن ، وأنها ساعية ليل نهار للوصول إلى هدفها

القومى — أى الاستقلال فى المناطق التى لهم فيها أغلبية عددية — أصبح الأستاذ المودودى ومن التف حوله وتأثر بدعوته من المؤمنين المخلصين أمام مسألتين خطيرتين :

الأولى : إن خسر المسلمون الصفقة — لاقدر الله — ولم يفوزوا فى الحصول على المملكة المستقلة ، على ما يبذلون فى سبيلها من جهود ومساع ، فماذا يكون وقتئذ فى مكنتنا من اتخاذ الحيل والتدابير لإنقاذ الاسلام والثقافة الاسلامية وخصائص المسلمين الفردية من نتائج هذا الانكسار القومى وعواقبه الوخيمة التى تأتى على أثره .

والثانية : ان نجح المسلمون فى مسعاهم وانقسمت البلاد وتجزأت ، فماذا يبقى فى وسعنا من الطرق الممكنة لنشر تعاليم الاسلام وتنوير قلوب عشرات الملايين [1] من الأقليات المسلمة المبعثرة فى مختلف أصقاع القارة ، بنور الحق وتثبيتهم على الطاعة والإذعان لأمر الله ورسوله . وكذلك إن تأسست باكستان

---

(١) عدد الذين بقوا فى الهند بعد التقسيم ، يبلغ زهاء أربعين مليوناً أي نحوا من نصف عددهم فى هذه القارة الصغيرة قبله .

بزعامة هؤلاء الزعماء الذين بيدهم زمام الحركة اليوم ، فماذا عسى أن نقدر عليه يومئذ من إيجاد الوسائل والخطط لتحويلها إلى دولة إسلامية خالصة حقيقية ، والوقوف فى وجوه الذين يريدون أن يتخذوا من مملكتهم الجديدة المنشودة جمهورية لا دينية .

وبعدما بلغت خطورة الموقف هذا الحد ، وأحس القائمون بالدعوة أن مستقبل الاسلام فى هذه القارة الهندية يتوقف على هاتين المشكلتين ، رأوا أنه قد آن الأوان لينخرط الذين تأثروا بهذه الدعوة فى تسع السنوات الماضية ، فى سلك واحد حتى ينتظم عقدهم ويجتمع شملهم ويتقدموا صفاً واحداً للقيام بالتبعة الثقيلة التى تنتظر رجالا من أمثالهم ذوى العقيدة المحكمة والفكرة الناضجة . فاجتمعوا فى شعبان ١٣٦٠ (أغسطس ١٩٤١) فى لاهور — وكانوا خمسة وسبعين رجلا من مختلف أنحاء هذا القطر وجميع طبقات الأمة — واتفقت كلمتهم على تأسيس (جماعة اسلامية) للنهوض بدعوة الاسلام الخالصة وإعلاء كلمة الله فى أرضه ، وانتخبوا الأستاذ السيد أبا الأعلى المودودى أميراً للجماعة ، حسب الطريقة الشرعية والمنهاج الدينى الخالص ، وتسمت الجماعة (الجماعة الاسلامية) . وكان الغرض المهم من تأسيس الجماعة يومئذ ، هو إعداد جماعة من العاملين المخلصين للنهوض

بالأعباء الخطيرة والقيام بالتبعات الثقيلة المنتظرة فى كلتا الحالتين كما تقدم بيانه آنفاً . وبتأسيس الجماعة دخلت الدعوة فى المرحلة الثانية من حياتها .

المرحلة الثانية من الدعوة ١٣٦٠—١٣٦٦ (١٩٤١—١٩٤٧)

بدأت الدعوة الاسلامية المرحلة الثانية من حياتها بتأسيس الجماعة واستنفاد المساعى فى إعداد جماعة صالحة للنهوض بأعباء شهادة الحق وإحياء نظم الاسلام فى هذه البلاد . وفى سائر بلاد العالم إنما يبدأ العمل فى بقعة صغيرة ثم يتسع إلى أن تبسط الدعوة أو الفكرة جناح رحمتها على سائر أقطار الأرض .

شرعت الجماعة الاسلامية فى مهمتها بتعميم الدعوة ونشر فكرة الاسلام وأداء شهـــادة الحق القولية والعملية . ففى جانب ظل الأستاذ المودودى يدون آراءه وأفكاره فى مجلة (ترجمان القرآن) ويلقى المحاضرات فى مواضيع عمرانية حيوية أمام طلاب الجامعات وأساتذتها ، وكذلك ظهر فى الجماعة نخبة من الكتاب والمؤلفين وقفوا حياتهم ومواهبهم لاستجلاء محاسن الاسلام وإبرازها ناصعة واضحة أمام أنظار العالم ، وذلك بأسلوب عصرى متين

يوافق ذوق العصر ويلائم طبيعة العقلية الجديدة ، فقد أفرغوا تعاليم الاسلام الخالدة الثابتة فى قالب جديد مقبول وكسوها ثوبا قشيبا من المصطلحات الجديدة والتعابير العصرية ، تجذب أنظار المتعلمين إليها وتأخذ بمجامع ألبابهم ، وذلك من غير أن يزيدوا أو ينقصوا من مبادىء الدين المحكمة وقواعد الشريعة الثابتة .

وفى جانب آخر عنيت الجماعة بتربية الأعضاء الذين كانوا ينتظمون فى سلك الجماعة بعد ما يمتحنون ويختبرون أسابيع وأشهراً حسب استعدادهم وأحوالهم ، واهتمت أيما اهتمام بتنشئتهم على الأخلاق الفاضلة والسجايا المرضية والطباع المستقيمة ، حتى يتمكنوا من الوقوف فى وجه الأهوال والشدائد من غير ما وهن ولا استكانة . وغاية ما كانت الجماعة تطمح إليه وتهتم به فى هذه المرحلة بوجه خاص أن يظهر أعضاء الجماعة وأنصارها (١) فى حياتهم اليومية العادية بمظهر وضىء من حسن المعاملة وطهارة

---

(١) الذين يؤيدون الجماعة ويوافقونها على أهدافها ومنهاج عملها ويتعاونون معها على العمل والكفاح ، لكن لا يقبلون العضوية لأسباب خاصة بهم يدعون (متفقين) فى مصطلح الجماعة ، وقد سميناهم (أنصاراً) بالعربية . أما الأعضاء فيدعون (أركاناً) والعضو (ركناً) . وبذلك يتبين أن لغتنا (الأردية) مشحونة بالكلمات العربية .

الأخلاق وأداء الأمانة والوفاء بالعهد والشعور بالمسئولية، يجبر كل من يعاشرهم ويعاملهم على الأقل على الشهادة فى نفسه والاعتراف فى قلبه بأن العقيدة التى يدعون إليها والفكرة التى يمثلونها، لابد أن تكون حقاً، لا يتطرق اليها زور ولا كذب.

واختارت لذلك طرقا ومناهج، لايتسع المقام للأفاضة فيها. منها أنها جعلت مركز الجماعة فى قرية عمرتها بنفسها واستوطنها صفوة من أعضائها، بعيدة عن العمران، وفتحت فيها فرعاً خاصا لتربية الأعضاء والأنصار، كانوا يؤمونها بالتناوب، إلا أن معظم اعتمادها فى تربية الأعضاء والأنصار وتنشئتهم على الطباع الثابتة المستقيمة كان على ثلاثة أمور: (١) التبليغ (٢) والمحافظة على نظام الجماعة وآدابها وقوانينها (٣) وحرية النقد لكل عضو فى داخل الجماعة.

فكان من واجبات كل عضو أن يعرض الدعوة ومبادئها وتفاصيلها على كل من يتصل به من ذوى قرباه وغيرهم من المسلمين وغير المسلمين. وللعمل على نشر الدعوة والمواظبة عليها، كان يستعد كل عضو للدراسة والمطالعة ويزود نفسه بما يقدر عليه من الأخلاق الفاضلة من عذوبة المنطق وحسن الخلق وتحمل الأذى

إذ لم يمكن تبليغ كلمة الحق ودعوة الناس إلى الخير والرشاد هينا لينا فى عهد من العهود ، فان الطبيعة البشرية لا تزال هى هى على ما كانت عليه فى عصر النبى ﷺ وأصحابه ، لم تتغير ولم تتبدل .
وللدعوة جانب آخر أبلغ من الدعوة القولية وأكثر منها نفوذاً وأعمق تأثيراً ، ألا وهى الدعوة أو الشهادة العملية ، وهى أن يتحلى كل عضو أو كل داع بصفات المسلم الصادق ويروض نفسه عليها وعلى الاستمساك بها فى المنشط والمكره ، فلا يعامل أحداً إلا على الصدق . ولا يعاقد قريباً أو أجنبياً إلا على ما جاءت به الشريعة من شروط ، ولا يرضى بالعقود الفاسدة المحرمة فى الشريعة ، ولو كلفه ذلك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة .
وكذلك لا يتعاطى الأخلاق السيئة الذميمة أبداً ، وإن جره ذلك إلى المحاكم أو السجون ، فإن المسلم يلتزم الصدق ويقول الحق ، حتى على أعواد المشنقة . اهتمت الجماعة بهذه الناحية من التبليغ بوجه خاص ، فاستقال أعضاؤها من وظائف الحكومة الكافرة — البريطانية — وانقطع المحامون من رجالها عن المحاماة أمام المحاكم التى تحكم بغير ما أنزل الله — والمحاكم عندنا كلها كانت تحكم بغير ما أنزل الله — وأبوا أن يتعاطوا بالربا والعقود المحرمة ، حتى أخذوا على أنفسهم ألا يعاملوا المصارف (البنوك)

التى لا تتحرك ولا تمشى إلا بالربا . وكذلك حرموا على أنفسهم كل ما حرمه الله ورسوله وإن كلفهم ذلك متاعب وشدائد لا قبل لعامة الناس باحتمالها ، ولا سيما فى نظام أجنبى كافر لايهتم بذلك فى قليل ولا كثير، بل يرى أذنابه وأتباعه من المتسمين بالاسلام وغيرهم أن مثل هذه المقاطعة وهذا التحريم نوع من الجنون فى هذا القرن . لكن أعضاء الجماعة قاموا بالشهادة العملية فى كل دائرة وفى كل فرع من فروع الحياة ، وأثبتوا للناس أنهم يفعلون مايقولون، وأنهم جادون لا هازلون . وكان من ذلك أنها لم تمض على هذا البرنامج وهذا المنهاج المخصوص للتربية سنة أو سنتان ، حتى اعترف الجميع أن هؤلاء المجانين رجال ، ولا كالرجال . وفى جانب آخر استوثقت الجماعة من نفسها ومن تصلب أعضائها واستقامة طباعهم وأخلاقهم، وتقدمت إلى الأمام بخطوات متئدة رزينة، غير وانية ولاوجلة. وليس من موضوعنا فى هذا المقام، أن نلم بما لقى أعضاء الجماعة من عنت الآباء والإخوة والأقرباء والأبناء والأزواج ، فان الحديث بذلك يطول . والذى نريد تسجيله فى هذا المقام أنه لم يكن أحد من أعضائنا فى مكانه من حسن الحظ أن تلقاه أقرباؤه وذووه برحابة الصدر وتهلل الوجه بعدما أعلن انضمامه إلى الجماعة واعتزامه اتباع ما جاء به النبى

الأمى ﷺ من الكتاب العزيز والشريعة الطاهرة الكاملة . فمن الشبان — وهم الأغلبية العظمى — من طرده أبوه وأخرجه أهله من داره وحرم عليه أرضه ومتاعه ، ومنهم من أبى ذوو قرباه أن يزوجوه ابنتهم لأنه عمل بسنة النبي ﷺ وأعفى لحيته التى طالما تعود حلقها من قبل ، ومن الشيوخ من ضربه ابنه وأهانه ، لأنه تخلى عن حياة الجاهلية فى شيخوخته . ومنهم .... ومنهم .... وجملة القول أن هذه الفتنة والمحنة قد ساعدتا الجماعة أيما مساعدة فى تربية الأعضاء والاطمئنان إلى استعدادهم للبذل والتضحية .

والأمر الثانى من الأمور المتبعة والطرق المعتمد عليها فى تربية الأعضاء ، المحافظة على نظام الجماعة . وذلك أن الجماعة بينت ، فى أول ما بينت من مقاصدها ، أنها الجماعة الداعية إلى إقامة الدين وإحياء نظام الاسلام الشامل المتكامل ، فمن أراد المشاركة فيها فعليه أن يتأمل المسألة بتريث ، ويعمل فيها فكره ورويته . حتى إذا استيقنت نفسه واطمأنت إلى أن الغاية التى تدعو إليها الجماعة والأهداف التى تتمسك بها والمنهاج الذى تسير عليه ، حق لا ريب فيه ، وأنها عين الاسلام الذى جاء به النبي الأمى ﷺ — اذا اطمأن خاطره وسكنت نفسه إلى كل

ذلك، اشترك فى الجماعة وأصبح من أعضائها العاملين. والأعضاء كلهم مكلفون، بموجب قواعد الاسلام الثابتة، باتباع الأمير والانقياد لأمره فى المعروف، وعليهم عهد الله وعهد رسوله أن يطيعوا أميرهم مالم يأمرهم بما يخالف ماجاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فكان لذلك فائدتان عظيمتان: الأولى أنه لم يدخل فى الجماعة إلا من آمن بفكرة الاسلام عن عقيدة وسكنت إليها نفسه، ومن ثم ما ازداد عدد الأعضاء على بضع مائة رجل فى السنين الست (١٣٦٠ — ١٣٦٦) التى نحن بصدد تاريخها فى هذا الباب. والثانية أن الأعضاء لم يكونوا بحاجة إلى قوانين ولوائح وأقلية تقيدهم بواجبات مخصوصة وتحدد دائرة أعمالهم أو تفرض عليهم اكتتابات معينة، فانهم ما قاموا بما قاموا به من الواجبات، ولا بذلوا ما بذلوا فى سبيل الدعوة من أوقاتهم وأموالهم، إلا بدافع من إيمانهم ووازع من عقيدتهم وبيعهم الذى بايعوا به.

والأمر الثالث هو حرية النقد لكل عضو فى نظام الجماعة الداخلى. وذلك أن النقد لابدمنه لإصلاح الجماعة ودرء مايحدث فيها من الخلل، ومثل النقد والانتقاد للجماعة كمثل النظافة للقرية أو البلدة. فالبلدة التى لا يعنى فيها بالنظافة وإزالة الأقذار،

تنتشر فيها الأمراض والأوبئة . وكذلك الجماعة التى لا يسمح فيها للأعضاء بالنقد ولا يتاح لهم أن يدلوا على مواطن الضعف فى نظامها وأخلاق أعضائها وأعمالهم ، صائرة لا محالة إلى التشتت والانحطاط .

والجماعة الاسلامية بنفسها انتقدت على العالم كله ونظم الدنيا بأسرها وأظهرت للملإ ما فيها من العيوب والمفاسد ، فكيف لا يسمح لأعضائها أن ينتقد أحدهم على الأمير أو على عضو آخر أو نظام الجماعة ، ما يراه برأيه فى حاجة إلى الاصلاح والتقويم . وذلك عين ماجرت به العادة فى زمن الراشدين المهديين رضوان الله عليهم أجمعين . فقد جرى العمل فى نظام الجماعة منذ يوم تأسيسها بأن ينتقد بعضهم على بعض ويستمع الذى ينتقد عليه إلى كلام الناقد بسعة القلب ورحابة الصدر ويرد عليه بأدب ووقار، إن كان يرى فى انتقاد أخيه مايحتاج إلى الرد والإيضاح . وكذلك واجب الناقد أن لا يصر على رأيه أو نقده إذا أرشده المنتقد عليه إلى وجه الصواب فى المسألة . وأيضا من واجبات جميع الأعضاء أن يدلوا الأمير على مواطن الضعف أو الخلل أو الفساد فى نظام الجماعة، فى أى فرع من فروعها ، وعلى الأمير

أن يستمع إلى أمثال تلك الشكاوى ويهتم بالتحقيق فى شأنها . قد جرى العمل بذلك فى نظام الجماعة منذ أول عهدها ، ولا يزال العمل به جاريا ، وإن أفضى فى بعض الأحيان إلى نوع من الخلل فى تسيير دولاب العمل .

فهذه هى الأمور أو الطرق الثلاثة التى اختارتها الجماعة لتربية أعضائها فى المرحلة الثانية من الدعوة (١٣٦٠ / ١٣٦٦) علاوة على نشر الصحف والمجلات والكتب والرسائل التى كانت تعنى بها بوجه خاص فى المرحلة الأولى منها .

المرحلة الثالثة من الدعوة من (١٣٦٦ / ١٩٤٧) :

نحن الآن فى مفتتح عهد الاستقلال ، والجماعة سائرة فى طريقها بتؤدة ووقار ، معنية بتربية الأعضاء والأنصار وإعـــدادهم للاضطلاع بأعباء المستقبل المرجوة ، والذى لا يختلف فيه اثنان أنه لم يخطر على قلب رجل ، حتى ولم يحلم بذلك مؤسس حركة باكستان ، أن البلاد تنقسم فى عشية أو ضحاها انقساماً يأتى بالموت والآلام والعذاب المهين لمئات الألوف من الرجال والنساء وأن المسلمين فى شرقى بنجاب يطردون ويخرجون من بيوتهم

ويقتلون ويشردون وتهتك أعراض نسائهم وبناتهم ، وأنهم يرغمون على فراق أوطانهم وأراضيهم ومساجدهم ومقابرهم ومدارسهم ، وزعماؤهم ساكتون فرحون بما حصلوا عليه من أرض مجزأة فى غربى الهند وشرقيها ، ولكنها سياسة الانكليز أرادت أن تذيق أهل البلاد «ثمرات» الاستقلال فى أول عهده ، حتى يذكروا عهود العبودية والذل بالخير ويذرفوا الدموع على زوال ملكهم العتيد وبلاهة زعماء المسلمين وسذاجتهم . . .

استغفر الله من زلة القلم ونفثات الصدر المكبوتة ، لست الآن بصدد سرد ما حدث ووقع فى المجزرة الهائلة ، وما انصب على الأبرياء والعجزة والشيوخ وربات الخدور من أبناء الاسلام من العذاب المهين والذل والمهانة ، مما لم يسبق له نظير فى تاريخ البشرية ، فان لذلك مقاما آخر .

وقد تقدم لى سرد بعض تلك الحوادث فى جريدة (الاخوان المسلمون) اليومية بالقاهرة وجريدة (السجل) ببغداد فى حينها . وقد صحت النية الآن على أن أجمع تلك المقالات فى رسالة مستقلة إن شاء الله .

نعم ! قد انقسمت البلاد انقساما لم يخطر على قلب أحد ،

والجماعة لم تستكمل بعد برنامج التربية ومنهاج تنشئة الشباب المسلم على الأخلاق المتينة المحكمة ، وكان بودها وفى برنامجها أن تبقى هذه المرحلة الثانية — مرحلة التربية والاستعداد — جارية متتابعة بضع سنين أخرى ، حتى إذا برزت الجماعة إلى ميــدان الجهاد والكفاح ، برزت متدرعة بسلاح قوى من الايمان والأخلاق الفاضلة والطباع المستقيمة . ولكن القدر جرى بما كان قدر ، وانقسمت البلاد الهنــدية إلى هندوستان وباكستان وتبدلت الأرض غير الأرض وانقلبت الأحوال ظهراً لبطن . فاضطرت الجماعة أيضا أن تدخل فى المرحلة الثالثة من الدعوة نظراً إلى مصالح الدين ، وحرصاً على مستقبل الدعوة فى بلاد باكستان الجديدة ، كما كانت شرعت من قبل فى المرحلة الثانية منها فى الهند المتحدة ، حينما ظهرت بوادر نيات الهنادك ونجم قرن الالحاد بين المسلمين . وهى لم تفرغ بعد من مرحلة الدعوة الأولى .

وكان من التأثير المباشر لهذا التقسيم أن انقسمت الجماعة الاسلامية أيضاً وانفصلت الجماعة فى باكستان عن أختها فى الهند انفصالا تاماً . هذا وإن كنا نقدر أن التقسيم المطلوب ربما يؤدى بنا إلى أحوال وظروف ، نضطر فيها إلى تقسيم الجماعة ، لكن

التقسيم وما جاء على عقبه من انقلاب وتغير فى شئون القطرين ، أجبرنا على الانفصال فى أول فرصة ، حتى يمكن لأعضاء الجماعة فى هندوستان [1] أن يديروا شئونهم حسب ظروفهم وأحوالهم ولهم أسوة حسنة فى حياة النبى ﷺ وأصحابه ، فى بدء الاسلام بمكة المكرمة . ومما يسرنا فى هذا المقام ذكره والتنويه به أن أعضاء الجماعة فى هندوستان ما أضاعوا الفرصة ، بل انتظموا فى عقـد الجماعة بعد التقسيم بقليل ، وانتخبوا الأستاذ أبا الليث الندوى الاصلاحى أميراً لهم وأسسوا مركزهم فى مدينة (رامبور) من مدن المقاطعات المتحدة (U. P.) . أما الأعمال التى قاموا بها والخدمات التى أسدوها للأمة المسلمة المنكوبة التى غادرها زعماؤها ـ من دعاة باكستان والرابطة الاسلامية ـ فى أيام محنتها فحدث عن البحر ولا حرج . وأما الأهوال والشدائد التى تحملوها بصبر وأناة والمطاعن والشبهات التى أزالوها بحكمة ورزانة ، والتضحيات التى قاموا بها والأموال التى بذلوها وأوقاتهم التى

---

(١) مما يجمل بنا ذكره فى هذا المقام أن عدد الأعضاء فى باكستان وقت تقسيم الجماعة كان ٣٣٥ ، والذين بقوا فى الهند بلغ عددهم ٢٤٠ من بين رجل وامرأة ، إلا أن عدد النساء قليل فى أعضاء كلتا الجماعتين .

أنفقوها، فانها مما يغتبط به ويؤثر ، وبلسان الثناء يذكر . فلعمر الحق ، أنها تجعلنا — نحن الباكستانيين من أعضاء الجماعة — فى حياء وخجل ، إذا وازنا بين أحوالنا وأحوالهم وأعمالنا وأعمالهم وأنها مما تفخر به أية أمة على وجه الأرض ، لو أتيحت لهــا . وجملة القول أن الأخ أبا الليث ومن معه من دعاة الحق وإخوان الصدق من أعضاء الجماعة وأنصارها ، هم السلوة الوحيدة للشعب المسلم الهندى المنكوب المضطهد من قبــل جيرانهم ، والمظلوم المغبون من تلقاء زعمائهم وقادتهم . اللهم ثبت قلوب هذه الفئة المؤمنة المجاهدة من أعضاء الجماعة وأتباعها، وسدد خطاهم واربط جاشهم وخذ بيدهم وأيدهم بنصرك ، فانهم حملة دينك ورافعو كلمتك، فى قطر قد طغى فيه الكفر ، وتنكر فيه — حتى وجوه العلماء والمشايخ — للدين الحنيف . اللهم هؤلاء رأس مالنــا ومناط آمالنا وأمانينا فى تلك البلاد الهندية التى قد ارتفعت فيها راية الكفر والضلال ، مستظلة بظلال أمريكا وانكلترا ، اللهم إنهم يدعون إلى دينك ويبلغون كلمتك فى مثل تلك الأحوال المؤلمة المضطربة، اللهم فادفع عنهم البلاء وثبت أقدامهم ولا تخيب رجاءنا فيهم .

هذا فى الهند . وأما الجماعة فى باكستان ، فانها قد اضطرت

أن تبرز إلى ميدان الكفاح والنضال وتوسع نطاق عملها وتقوم بدعوة عامة للأمة إلى إحياء نظام الاسلام وإقامة الدين الكامل. وذلك لأسباب قاهرة ، لم تدع للجماعة مجالا للانزواء والتفرغ لتربية الأعضاء وتدوين الكتب ، شأنها قبل التقسيم .

فمن أهمها أن المجتمع المسلم الباكستانى — على ما به من شوق إلى إحيـــاء نظم الاسلام ونزوع إلى شىء يدعى « الحكومة الاسلامية » سمعوا به من غير أن يعرفوا حقيقتـه — لا يعرف من الاسلام إلا اسمه ولا يميز — حتى المتعلمون منهم — الغث من السمين والخبيث من الطيب . وهـــذا الجهل قد رسخ فيهم وتمكن منهم فى القرون الماضية ، لأسباب قد تقدم لنا ذكرها . وقد ازداد ذلك الجهل بالاسلام ومبادئه فى عصر الانكليز ، لتهافت الناس على وظائف الحكومة ، وغفلتهم عن التعليم الدينى وجمود العلماء ، وعدم معرفتهم لمقتضيات العصر ، وعجزهم عن نشر الدعوة بأسلوب عصرى مفهوم. زد على ذلك أن زعماء المسلمين ممن كانوا على رأس حركة الانفصال عن الهنادك فى السنين العشر التى سبقت التقسيم ، ما اهتموا بتنوير الرأى العـــام ، وتثقيف أذهان الجمهور ، ولا اعتنوا بتلقينهم مبادىء الدين الحق ،

وتعريفهم بالنظام الاسلامى الذى كانوا يجاهرون بالدعوة اليه كذبا وزوراً . وكلما قلنا لهم بوجوب تنوير أذهان العامة وتثبيت قلوبهم على عقيدة الاسلام ومبادئه ، ودعوناهم إلى الاهتمام بهذه الناحية ، استخفوا بنا واستهزءوا بهذا الاسلام الذى يريد منهم فهم مبادئه والعمل بأوامره والنفور عن نواهيه ، بل كان من جهودهم ومساعيهم أن تبقى الأمة جاهلة بمبادىء الاسلام وتعاليمه، تقفو أثرهم وتستسلم لأمرهم ، حتى إذا تمكنوا من ناحية الأمر والحكم ، سهل عليهم خداعهم وغرورهم بالترهات والمظاهر الخداعة . فكان من نتائج كل ذلك أننا حصلنا على الاستقلال باسم الاسلام لإحياء نظم الاسلام — على حسب تصريحات القوم - والأغلبية الغالبة من سكان هذا القطر لا تعرف من الاسلام إلا أنه شىء مقدس ورثوه عن آبائهم، وأن ذلك الاسلام المقدس لا يوجب عليهم إلا أن يصلوا ويصوموا ويأتوا بشعائر معينة محدودة .

والثانى أن الذين قادوا حركة الاستقلال وتولوا زمام الأمر بأيديهم بعده ، قد ظهر من قبل ، من أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم أنهم لا يريدون الاسلام ولا نظمه ولا حكمه . وإنما يودون أن يفسحوا فى حكمهم وإدارتهم وسائر ما يتعلق بالدولة ومصالحها

العديدة المتشعبة على المنوال الذى شاهدوه فى مصانع انكلترا، وأن يتخلقوا بأخلاق أساتذتهم الانكليز الذين ربوهم فى مدارسهم وجامعاتهم وصنعوهم بأعينهم. ثم إن هؤلاء الزعماء الذين أصبحوا بعد الإستقلال وزراء ورؤساء ونوابا وسفراء، لم يعد بعيداً من أمثالهم أن يأتوا بدستور انكليزى أو أمريكى أو خليط من الجنسين، إذا تركوا وشأنهم، يقترفون ما يشاءون وتشاء أهواؤهم.

والثالث أن ما ظهر من أخلاق الشعب وزعمائه حين فرارهم من شرقى بنجاب وما صدر عنهم من مخزيات الأعمال ومبكيات الخصال — من استئثار كل رجل بنفسه وفشو الرشوة حتى فى أيام المحنة وأنواع من القساوة والجفاء وغلظ القلوب مما لا يتسع المقام لذكره والإفاضة فيه — حينما كانوا فى ركب اللاجئين وفى معسكراتهم وخيامهم أمام سيوف الأعداء المصلتة وبنادقهم المصوبة، كل ذلك جعلنا على حذر من مستقبل الدولة ونفاذ الشريعة الاسلامية فيها.

ورابع الأربعة من تلك الأسباب القاهرة ما ظهر من سكان غربى بنجاب والحدود الغربية الشمالية وغيرهما من أقطار باكستان

الغربية ، حين خروج الهنادك والسيك من أهلها وهجرتهم إلى هندوستان — ما ظهر منهم من نهب الأموال المتروكة وسوء معاملتهم للاجئين المسلمين الذين طردوا من أوطانهم وأصيبوا فى أعز ما كانوا يملكونه من المال والأهل والولد ، وما اقترفوه من الفظائع الشنيعة فى قتل الأبرياء من الهنادك وهتك أعراض نسائهم وبناتهم ، كأنى بهؤلاء الفسقة من المتسمين بالاسلام ، أرادوا أن يردوا على فظائع الهنادك بأمثالها . ومعاذ الإله أن يتجرأ المرء — وفى قلبه ذرة من الايمان — على هتك أعراض النساء غير المسلمات ونهب أموالهم وأموالهن ، بحجة أن المسلمين فى أقطار أخرى قد عوملوا بمثل تلك المعاملة من إخوانهم وبنى نحلتهم . حاشا للمسلم أن يقترف مثل هذه السوءة الشنيعة . ولكن المتسمين بالاسلام المنتسبين إليه فى هاتيك الأقطار ، قد ارتكبوا كل ذلك ، بل فيهم من تجرأ على هتك أعراض اللاجئات المسلمات اللائى فررن من العار فى بلاد الهنادك ، ووصم جبينه بعار الأبد.

هذا ما كانت عليه الحال فى باكستان الغربية وفى الأشهر الأولى بعد الاستقلال ، وهذه هى الأحوال والأسباب القاهرة التى حدت الجماعة على الدخول فى معترك الكفاح العملى والوقوف

فى وجه هذه المنكرات ومقاومة الأخطار المهددة لكيان الدولة « واسلاميتها » . دخلت الجماعة المعترك ، ورأس مالها تلك الفئة المؤمنة الصابرة من أعضاء الجماعة وأنصارها الذين عنيت بتربيتهم وإعدادهم لمثل هذه المعارك ، إلا أنها وزنت تلك الفئة القليلة بموازين النقد والاختبار ، وامتحنت صبرها وقوتها قبل أن تقذف بهم إلى خضم الكفاح المتلاطم الأمواج ، وقد أتاح الله لذلك الاختبار فرصة حسنة فى تلك الأيام نفسها .

وكان ذلك الاختبار على ثلاثة أقسام أو فى ثلاثة مواطن : الأول فى مقاطعة ينجاب الشرقية قبيل كارثة التقسيم وبعدها ، حينما طرد المسلمون وأخرجوا من ديارهم وقتلوا ونهبت أموالهم وسلبوا أعراض نسائهم ونزل بهم بيد الهنادك والسيك حكومة وشعباً مالم ينزل بأية أمة فى التاريخ ، فيما نعرف من عبر التاريخ وفظائعه وشنائعه . وكان فى تلك الأقطار جملة صالحة من أعضاء الجماعة وأنصارها ، بل كان مركز الجماعة أيضاً فى قرية من قراها المحاطة بالسيك والهنادك ، فامتحنوا فيما امتحن به المسلمون واختبروا فيما اختبر به سائر بنى الاسلام فى تلك الأقطار ، إلا أنه مما يجب التنويه به والاشادة بذكره أن أحـــداً من أعضاء الجماعة لم يجبن ولم يفر قبل جيرانه وما استأثر بنفسه وأهله دون جيرانهم وأهليهم ، بل أثبت كل واحد منهم فى قريته أو بلده أنه

هو الجدير بالزعامة بثباته وتجلده ومواساته للعجزة والأطفال والنساء . وقد نجح أكثرهم فى أن ينجو بنفسه ونفوس أهل قريته أو الحى الذى هو منه ويأتى بهم سالمين إلى حدود باكستان ، وكان من فضل الله عليهم أنه لم يقتل أحد منهم (١) ولم يصب أحد فى أعراضه وأعراض أهله، وذلك بالأخلاق الحسنة التى أخذت من قبل بألباب جيرانهم السيك ووقعت من قلوبهم موقعاً حسناً، يعترفون لهم بسمو الخلق وطهارة الشمائل .

والثانى فى مقاطعة « بنجاب » الغربية الداخلة فى حدود باكستان ، بل قلبها الخفاق وعرقها النابض ،فى تلك الأيام نفسها . فقد شاهدت الأمة بأم عينها أن أحداً من أعضاء هذه الجماعة فى هذه البقعة من « باكستان » لم يدنس عرضه وخلقه بنهب أموال الهنادك والسيك المفارقين لأوطانهم ، المهاجرين إلى هندوستان ؛ ولم يضع يده ولا على شبر واحد من أراضيهم المتروكة ، ولم يشارك — ولو من بعد — فى التعرض للنساء أو النظر إليهن

---

(١) لم يستشهد منهم إلا شاب واحد دخل في قرية من قرى الهنادك والسيك لانقاذ من بها من مستضعفى المسلمين ؛ دخلها وحده فى غاية من الجرأة فقتل بها شهيداً . رحمه الله رحمة الشهداء الصالحين

بسوء . بل كان فيهم من عرض نفسه للخطر ونجا بكثير من أبرياء الهنادك والسيك . وكان كل ذلك فى زمن ، قلما بقى فيه أحد لم يغترف من بحر أموال الهنادك والسيك ولم يرو غليله من عيون أموالهم وأراضيهم . وذلك أن الهنادك كانوا أمة من الأغنياء كاليهود تركوا أموالا طائلة وقصوراً شامخة ، لو دبرتها الحكومة تدبيرا عادلا ، لكفت معظم اللاجئين المسلمين مؤونة الأكل والسكن ، إلا أن القوم على اختلاف طبقاتهم قد ولغوا فى هذا الإناء النجس ، فنجسوا أعمالهم وأخلاقهم .

والثالث ، وهو الأهم والأرفع ذكراً ، خدمة الجماعة للاجئين من المسلمين والقيام بمواساتهم ومداواتهم والاهتمام بمأكلهم ومسكنهم بعد دخولهم فى حدود باكستان من فوره . وذلك أن الجماعة ـ وكان عدد كبير من أعضائها أنفسهم من اللاجئين الذين لم يجدوا بعد مسكنا يأوون إليه ـ لاحظت أن الوافدين على باكستان صباح مساء ويدخلون حدودها ويلجأون إلى كنفها من شيوخ ونساء وأطفال وجرحى ومرضى وعجزة ، لاتهتم الحكومة بشأنهم إلا قليلا ، والجمعيات المسلمة الشعبية فى الميدان لا تكاد تكرس جهودها وقواها فى عمل

إنسانى بحت ، لا يدر لهم رزقا ولا يخولهم منصبا أو سمعة ، وأنه يموت كثير منهم جوعاً وعطشا بعد دخولهم فى حدود المملكة ، وأنه يصبح عدد آخر عرضة للأمراض بسبب الضعف وقلة الأقوات وتجشم المشاق المتتابعة .

لما شاهدت الجماعة كل ذلك، شمرت عن ساق الجد وأهابت بجميع أعضائها وأنصارها والمتأثرين بدعوتها وبكل من يحب الانضمام إلى هذا العمل الانسانى الخالص، أن يقوموا قومة رجل واحد ويصبحوا مستعدين لأداء واجباتهم . وشرعت فى العمل فعلا ، وهرع المتطوعون إلى ميدان العمل وتتابعت الاعانات من كل فج وصوب، حتى تأثرت الحكومة وفوضت إدارة بعض مشاريعها الخيرة للاجئين إلى الجماعة وشهد رجال الحكومة ورؤساؤها أن هؤلاء الناس هم الأكفاء لهذا العمل الجدى الانسانى العظيم. دامت هذه الخدمة الانسانية أربعة أشهر متوالية فى « لاهور » وبعض المدن الأخرى . حتى انقطع سيل اللاجئين وتم تسفيرهم من معسكرات اللاجئين فى هندوستان واكتظت البلاد على سعتها بوفرة عددهم وأصبحت مسألة اللاجئين وتدبير أمرهم شغل الحكومة الشاغل ، إلا أن الجماعة قد أكملت

ما كانت أخذت على عاتقها من خدمة اللاجئين ومواساتهم وتدبير أمورهم حين دخولهم وطنهم الجديد ومداواتهم . وبذلك اجتاز أعضاء الجماعة وأنصارها اختباراً قاسياً من اختبارات الحياة العملية والكفاح العملى .

الدعوة العامة والمطالبة بإعلان إسلام الدولة :

هذا ولما فرغت الجماعة من اختبار أعضائها وامتحان صبرهم على المكاره وتحملهم للمشاق والمتاعب وتجردهم عن الشهوات والمطامع فى تلك المواطن الثلاثة ، ولاسيما الأخير منها ، شرعت فى الدعوة العامة وبدأت تنشر محاسن النظام الاسلامى والحكومة الاسلامية. وقامت فى هذه السبيل بجولات واسعة فى المدن والقرى وعنيت بنشر مئات الألوف من النشرات لتبين مزايا نظام الحكم الاسلامى وتعميمها بين العامة ، حتى يكون الشعب على بصيرة مما تدعو إليه الجماعة. وذلك فى يناير سنة ١٩٤٨ . ولعمر الحق أنه لم يمض على المسلمين فى هذا القطر زمان نشرت فيه محاسن النظام الاسلامى وعممت تعميماً ، كما نشر وعمم فى شهر واحد ، بمساعى أعضاء الجماعة وأنصارها وجهودهم المتواصلة المتتابعة .

ثم نشرت الجماعة صورة «المطالبة» المشتملة على أربعة بنود

وعممتها تعميما. وقد بلغ من ذيوعها وانتشارها أنها لم تخل منها قرية ولا مدينة ولا بيت ولا دكان ولا محطة ولا سيارة. ثم دخلت المطالبة فى طور جديد من النشاط والعمل، حينما جعل الشعب وممثلوه يرسلون بهذه المطالبة، زرافات ووحدانا، إلى الحاكم العام والجمعية التأسيسية ورئيس الوزراء وأخذت ترد عليهم مئات وألوفاً بكل بريد حتى ضاقوا بها ذرعا ولا يكادون يهتدون إلى سبيل للتخلص منها. ودونك هذه «المطالبة» أو بنود المطالبة الأربعة، التى أقامت البلاد وأقعدتها، ونبهت المتبوئين على العرش من نوم الغفلة:

«ولما كانت الأغلبية الغالبة من أهالى باكستان تؤمن بالاسلام ومبادئه،

وأن المسلمين ما قاموا بالتضحيات البالغة والجهود الجبارة إلا ليتيسر لهم تسيير شؤون أمرهم طبقاً لتلك المبادىء،

فالآن، وقد حصلنا على الاستقلال، يطالب كل مسلم باكستانى الجمعية التأسيسية بأن تعلن:

(١) أن الحـــاكمية فى باكستان مختصة لله العلى الأحد،

وما لحكومة باكستان من الأمر من شيء غير انجاز أمر مالكها الحقيقي فى أرضه .

(٢) وأن الشريعة الاسلامية هى القانون الأساسى لباكستان

(٣) وأن كل مايعارض الشريعة الاسلامية من قوانين البلاد الجارية ، يلغى ويبطل ، وأنه لاينفذ بعد ذلك قانون يخالف الشريعة .

(٤) وأن حكومة باكستان لا تتصرف فى شؤون الملك إلا فى ضمن الحدود التى رسمتها الشريعة . »

هذه هى المطالبة الشعبية الشهيرة وبنودها الأربعة التى رتبها الأستاذ المودودى وأعلنها لأول مرة فى محاضرة له فى كلية الحقوق فى «لاهور» يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٤٨ ، ثم تلقتها الأمة بالقبول وطالبت بها فى مئات الألوف من الحفلات والخطب والمحاضرات والمقالات. حتى تنبه القائمون بالأمر للموقف الحرج ورأوا فى محتوياتها خطراً على مزاعمهم ونياتهم الفاسدة وقضاء على ما كانوا يخفونه فى ضمائرهم من تأسيس حكومة جمهورية لا دينية . فابتدعوا طريقاً من الطرق التى تلقوا دروسها بأيدى أساتذتهم الانكليز . وبيان ذلك أنها أومأت إلى بعض أذنابها

أن يشيع الخبر فى الناس « أن المودودى يقول بعدم مشروعية الجهاد فى كشمير، وأن من قتل فيها واستشهد، مات موتاً حراماً، وتوافقت جميع الصحف المأجورة الموالية للحكومة والأذاعة وتعاونت على إشاعة هذا الخبر المزور الملفق ، لتثور الأمة على الجماعة ورجالها وتشغلهم بأنفسهم عن المطالبة ودعوة الأمة إلى إقامة نظام الاسلام ثم شفعت هذه الحملة الخبيثة باضطهاد العاملين فى حقل الدعوة والتضييق عليهم باعتقال الأستاذ أبى الأعلى المودودى والأستاذ أمين أحسن الاصلاحى — الذى يعد من مصاقع الخطباء وأهل العلم بالتفسير فى هذه البلاد — والسيد طفيل محمد السكرتير العام (القيم) للجماعة وذلك فى رابع أكتوبر سنة ١٩٤٨ . وكذلك عطلت قبل ذلك صحيفتا (تسنيم اليومية ، وكوثر نصف الأسبوعية) اللتان كانتا تنطقان بلسان الجماعة ، والمجلات الأخرى التى كانت تساعدها . وأيضا عومل كثير من أعضاء الجماعة فى مختلف الأقاليم والمديريات بالاضطهاد والاعتقال والضرب والشتم وغيرها من الأعمال التى كانت تنم على روح الانتقام من قبل الحكومة . . . . ولكن حركة المطالبة ظلت جارية مستمرة مع كل ذلك، حتى ارتجت بها المدن والقرى واذعن رجال الحكومة المتغطرسون للرأى العام فأصدرت

الجمعية التأسيسية ذلك القرار التاريخى الذى عرف فيما بعد بقرار المبادىء، والذى أعلنت به الدولة اسلامها وشهدت شهادة الحق، وذلك فى الثانى عشر من مارس سنة ١٩٤٩، وقد قرر هذا القرار والمودودى وزملاؤه محبوسون فى السجن منذ ستة أشهر. ودونك الجزء المهم من ذلك القرار التاريخى :

« ولما كان الأمر والحكم فى هذا الكون لله وحده، وكانت السلطة التى منحها الله دولة باكستان بواسطة شعبها وديعة مقدسة لتزاولها فى الحدود التى رسمها الله، تقرر هذه الجمعية التأسيسية، بصفتها ممثلة للشعب الباكستانى، أنها تضع لدولة باكستان المستقلة ذات السيادة الكاملة :

(ا) دستوراً تمارس به الدولة وظيفتها وتتمتع بالسلطات المخولة لها بواسطة نواب الشعب المنتخبين.

(ب) دستوراً يكون العمل به وفق مبادىء الديمقراطية الكاملة والحرية والمساواة والتسامح والعدالة الاجتماعية، كما جاءت فى تعاليم الاسلام.

(ج) دستوراً يؤهل به المسلمون لأن ينظموا حياتهم الفردية

والجماعية حسب تعاليم الاسلام ومقتضياته التي وردت في الكتاب والسنة ، الخ الخ ..

فأنت ترى أن ذلك كان فضلا من الله على هذه الأمة ، ونجاحاً ملموساً للشعب المسلم الذي أبى أن يرضى دستوراً أو قانونا غير دستور الاسلام أو قانونه . ومن جهة أخرى ، كان لهذا القرار تأثيره العميق في مستقبل الدولة ومستقبل مسلميها القاطنين بها ، كما لا يخفى على اللبيب البصير بالقانون والدستور . ولما كان هذا الأمر بالغاً الغاية من الأهمية في نظرنا ، رأينا أن نوضحه بكلمة موجزة .

وبيان ذلك أن الدول التي ليس لها دستور مدون إنما يحكم على نوعيتها ، أو كفرها وإسلامها ، بسلوكها في السياسة وتدبير المملكة والتشريع . أما الدول التي لها دستور مدون مكتوب ، فلا يحكم بكفرها أو إسلامها أو شيوعيتها أو جمهوريتها إلا بنصوص الدستور نفسه .

فالذي لا يختلف فيه اثنان أن دولة باكستان لم تقم إلا باسم (الاسلام) المحبوب عند الشعب ، لكن القانون المعمول به في الحكومة بقي على ما كان عليه في عهد الانكليز ، أما الدستور

فقد انتقل حق وضعه إلى الجمعية التأسيسية التى خولت حاكمية البلاد وحقوق وضع الدستور باتفاق من الحكومة الانكليزية وأعضاء المجلس النيابى ، ممثلى الشعب يومئذ . فأصبح الشعب الباكستانى المسلم فى حيرة من أمره : هل هو يعيش فى دولة إسلامية أم دولة كافرة ؟ فالقانون هو القانون المبنى على أساس حاكمية غير الله ، والمحاكم هى المحاكم التى تحكم بغير ما أنزل الله . والدستور هو الذى ورثه الانكليز — وهو القانون الذى يعرف بقانون حكومة الهند ١٩٣٥ . والجمعية التأسيسية الجديدة ساكتة لا تنبس ببنت شفة عن غايتها وأهدافها . والشعب يدين بالاسلام يريد القانون الاسلامى والشريعة الاسلامية .

قلنا ان الشعب أصبح فى حيرة من أمره ، لكن العارفين بطبيعة الاسلام وطبيعة الدساتير والقوانين كانوا يرون أنه لا بد من إعلان الجمعية التأسيسية إسلامها واعتزامها وضع دستور إسلامى مبنى على قواعد الشريعة الاسلامية ، حتى يتنفسوا فى بيئة إسلامية خالصة ويطمئن خاطرهم إلى خدمة الدولة الجديدة . وإلا ، فلا فرق بين هذه الدولة والدول المسلمة الأخرى فى بلدان المسلمين . ومن أجل ذلك قاموا بحركة المطالبة ، وكان من فضل الله عليهم وعلى هذه الدولة أن قررت جمعيتها التأسيسية هذا القرار

التاريخى الذى تقدم ذكره آنفاً. ومن ذلك اليوم أعلنت الجماعة الاسلاميـــة إسلام الدولة ثم ولاءها للدولة وجواز المرافعة فى محاكمها والتوظف فى دوائرها المختلفة. وإن كانت القوانين باقية على ما كانت عليه وذلك لإعلان الجمعية التأسيسية غايتها وأهدافها. ومثل الدولة فى ذلك كمثل رجل أسلم وشهد شهادة الحق، لكنه ما بدأ يصلى ويؤدى الفروض والواجبات، فنجتهد فى تلقينه مبادىء الدين وتنشئته على امتثال الفروض والواجبات والتخلق بالآداب الاسلامية. كذلك أعلنت الجماعة إسلام الدولة بعد هذا القرار وشرعت فى تحويلها فعلا وعملا إلى دولة إسلامية عاملة بالكتاب والسنة.

البرنامج الجديد:

هذا، وقد وصلنا فى تاريخ حركة إقامة الدين ودعوة الجماعة الاسلامية إلى ما نحن عليه اليوم، فيجمل بنا أن نبين فى كلمة موجزة منهاج الجماعة الجديد وخطتها الحديثة التى اختارتها للعمل بعد قرار المبادىء. وهذه الخطة الجديدة تشتمل على أربعة أغراض سامية وأهداف مهمة:

(١) أن يحتفظ بكيان الدولة وتحمى من هجمات الاتجاهات

الفكرية والعملية ـ التى تعدل بها عن منهاج الاسلام ـ وعواقبها السيئة .

(٢) أن تبذل الجهود فى إصلاح شأن المجتمع ورقيه الخلقى والعقلى ، حتى ينقطع عن منابع الجاهلية ، ويقوم على دعائم الاسلام الصالحة ، ويبلغ من ذلك كله المستوى الذى تزدهر فيه الحسنات وتمحى السيئات .

(٣) أن لا ينهض بنيان مملكتنا الجديدة إلا على الأسس التى حددت فى (قرار المبادىء) ، وأن لاندع حيلة تدبر فى السر أو فى العلن لإقامة نظام جاهلى بعيد عن الاسلام ونظمه، ضاربة (بقرار المبادىء) عرض الحائط .

(٤) أن تستبدل زعامة راشدة صالحة بالزعامة الحاضرة ، وذلك بطرق سلمية جمهورية ، ثم يحدث تغيير وإصلاح فى قوانين الحكومة وإدارتها ومعارفها وسياستها المالية وخطتها للحرب والسلم والسياسة الخارجية ـ يحدث فى كل هذه الشعب والنواحى تغيير وإصلاح ، يجعل من دولة باكستان دولة تمثل الحكم الاسلامى أصدق تمثيل أمام الدنيا .

وهذه الأغراض الاربعة ، وكذلك المساعي والجهود التي

تبذل للوصول إليها والظفر بها ، متشابكة ، لا يمكن أن يفصل بعضها عن بعض ، وليس فى وسعنا أن نعدد المساعى والطرق التى تختار لكل واحد من تلك الأهداف الأربعة ، منفصلا كل واحد منها عن الآخر ، إلا أننا نود أن نجمل الاشارة إلى بعض الجهود التى تبذل والطرق التى تختار والسبل التى تسلك لكل واحد من تلك الأهداف الأربعة ، منفصلا كل واحد منها عن الآخر ، إلا أننا نود أن نجمل الإشارة إلى بعض الجهود التى تبذل والطرق التى تختار والسبل التى تسلك لكل واحد من الأغراض الأربعة على حدة .

فالاتجاهات الفكرية التى تعـــدل بالأمة والدولة عن منهج الصواب، ولها أعوان وأنصار فى الحكومة وعلية القوم والطبقات المتوسطة ، هى الشيوعية والتفرنج ، أى الاباحيـــة والفجور المستورد من أسواق الغرب فى العهد الانكليزى البائد . هذان هما الركنان العظيمان اللذان يلجـأ اليهما دعاة الالحاد والفجور والتبرج . والاتجاهات والنزعات الاخرى غيرهما ليس لها جذور ثابتة ، إنما هى ترتوى وتتغذى من هاتين الشجرتين الخبيثتين . فالجماعة جادة فى مقاومة هاتين النزعتين بالعلم والحكمة والتلقين والمظاهر العملية . فلأمير الجماعة ونخبة من أعضائها مؤلفات

سائرة فى رد الشيوعية وتبيين محاسن نظام الاسلام الاقتصادى ، وكذلك لاعضائها وأنصارها أعمال جدية فى تحسين حال الفلاحين والعمال . وأيضاً لا تقصر صحف الجماعة ومجلاتها ولا تألو جهداً فى القضاء على نزعات الفجور والخلاعة والاباحية والتبرج وغيرها مما راج وانتشر بين المتعلمين والمتعلمات والمتفرنجين والمتفرنجات ، حتى ان تلك الطبقة لا تخشى على نفسها إلا من الجماعة وحركتها الاسلامية القوية ، لأنهم يعرفون ويشاهدون بأم أعينهم أن أعضاء الجماعة ليسوا من المشايخ والعلماء الذين كانوا يستهزئون بهم ويستخفون بشأنهم ، لكونهم يجهلون شؤون الملك ونظم الاقتصاد والسياسة الحاضرة . وإنما هم أمام جماعة من الدعاة تخرجت فى الجامعات العصرية مثلهم ، إلا أن الله أنعم عليهم بنعمة الايمان وأكرمهم بالتوفيق لخدمة دينه وإعلاء كلمته .

أما إصلاح شأن المجتمع وترقية مستواه الخلقى والفكرى ، فهو عمل خطير يتوقف عليه نجاح الحركة كلها . فانه لا يمكن أن تقوم حركة إسلامية وتؤدى مهمتها بنجاح واستقامة فى مجتمع متهدم البنيان ، متزلزل الأركان ، لا يكاد يستقر على شىء ولا

يثبت على مبدإ . فالجماعة استعرضت حال المجتمع استعراضاً كليا وتأملت أحوال كل طبقة ودققت النظر فى شؤونها وميولها الجليلة والحقيرة ، ثم بدأت تخاطب كل طبقة وكل فئة بما يناسب عقولهم ومعارفهم وافكارهم . فالعلماء ، مثلا ، لهم كلام ، وللعامة كلام آخر . وكذلك لكل منهم برنامج مستقل . وأيضاً استعانت الجماعة فى مهمتها هذه ، بالمشاركة فى انتخاب المجالس النيابية ، ودعت العامة الى استخدام حق التصويت بشعور تام بالمسئوليـــة . وكان من ثمرات ذلك أن انتشرت الدعوة فى الأمصار والقرى وتغلغلت فى المجتمع ، بحيث لم يبق أحد لم يعرف اسم الجماعة أو لم تبلغ كلمة الحق مسامعه .

والهدف الثالث - أن لا تحيد الدولة عن الحدود التى رسمها قرار المبادئ - يجعلنا وجهاً لوجه مع الحكومة الباكستانية والمسيرين لشؤونها ، فانهم لم يصادقوا على اقرار المبادئ عن طيب نفس أبداً ، بل الأمر أنهم أرغموا على ذلك ارغاما . والشاهد على ذلك انه قد مضى على إمضاء هذا القرار ثلاث سنوات وستة أشهر (١) والبلاد على حالها ، لم يحدث فيها أدنى

---

(١) كتبت هذه السطور فى ١٧ ذى الحجة ١٣٧١هـ (٨ /٩/١٩٥٢)

تغيير ، ولم يتبدل فيها ولا حرف واحد مما ورثته من قوانين العهد الانكليزى المشؤوم . بل أدهى من ذلك وأمر أنه قلما يمضى يوم لا ياتون فيه بشىء يناقض الشريعة وينافى روح قرار المبادىء ، فأصبح مثل الدولة فى ذلك كمثل رجل أسلم وشهد شهادة الحق ثم لا يصلى ولا يصوم ولا يؤدى شعائر الدين ، بل ربما يأتى ببعض الأعمال التى تعارض مبادىء الاسلام وأصوله الثابتة . فالظاهر أن ذلك لا يمكن تحمله الى أجل غير محدود فى حق رجل واحد ، فضلا عن أن يتحمل فى حق دولة بأسرها . فالجماعة واقفة متيقظة تراقب كل حركاتهم بحذر وحيطة ، وترد عليهم كلما تحتاج المسألة الى رد علمى ، وتقيم حركة شعبية حينما ترى أن المسألة جد ، وأن القوم لا يستسلمون إلا للقوة الشعبية

وفى الوقت نفسه ، ما زالت الجماعة تبين محاسن النظام الاسلامى وتنشر مزاياه ، باسلوب علمى قوى محكم يقنع الطالب ويفحم المعاند . وكذلك ما غفلت الجماعة قط عن تنوير الرأى العام وتزويده بالمعلومات اللازمة بطرق وأساليب تلائم أذواقهم وطباعهم .

ورابع الأربعة هو استبدال زعامة راشدة صالحة بالزعامة

الحاضرة ، حتى يتمكن من تحويل باكستان الى دولة إسلامية حقيقية ، تمثل حكم الاسلام ونظمه الخالدة أحسن تمثيل فى هذا العصر . والذى يعرفه القاصى والدانى أن القائمين بالأمر اليوم فى باكستان لا يريدون الحكومة الاسلامية والنظام الاسلامى بأعماق فؤادهم ، وانما أرغموا على إمضاء قرار المبادىء إرغاماً كما سبق ، فلا يرجى منهم ومن امثـالهم أن يصعدوا بدولة باكستان الى المستوى الخالق الذى اتسم به الحكم الاسلامى فى أزهى عصوره واوفقها لتعاليم الاسلام والشريعة المحمدية . فاذن لا مندوحة من أن تستنفد الجهود والمساعى فى استبدال زعامة راشدة صالحة بهذه الزعامة المعوجة المنكرة التى لم تتقدم ولا خطوة واحـدة الى الأمام ، مع أنه قد مضى على قرار المبادىء بضع سنوات . ولكن ما هو الطريق الى ذلك ؟ ان من طبيعة الحكم والسلطة أن لا يرضى بالتخلى عنهما من ذاق لذتهما مرة واحدة . والمقاومة العنيفة ربما تفضى بالبلاد الى فوضى وفساد لا يدرى ماذا تكون عواقبهما الوخيمة . فمن أجل هذا وذلك اختارت الجماعة الطرق السلمية الجمهورية من تنوير الرأى العام وخوض معارك الانتخابات والدخول فى المجالس النيابية . لكن الأمر ليس بسهل ميسور كما يظهر لأول وهلة .

فالذين بيدهم أزمة الحكم فى باكستان لا يتحرجون من وضع العراقيل والعقبات فى طريق الانتخاب النزيه ، ولا يرون بأساً باستخدام أدوات الحكم من الشرطة والموظفين لاستمالة الرأى العام الى جانبهم ، خلافاً لجميع القوانين الجمهورية . وعلى كل فالجماعة دخلت المعركة وقررت خوض غمارها والمثابرة على النضال والكفاح فى هذا الميدان ، حتى ترتفع كلمة الحق ويرفرف لواء الاسلام وتعاليمه فى هذه البقعة من الارض .

هذا آخر ما اردت تسويده فى هذه العجالة .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين . وكتب فى العشرين من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ .

———

فصل ختامى

مقتبس من رسالة « الجماعة الاسلامية »

الجماعة الاسلامية وغايتها ومنهاج عملها :

إن غاية الجماعة الاسلامية الوحيدة ومقصدها الجوهرى انما هو اقامة النظام الاسلامى العادل فى الدنيا ، وابتغاء وجه الرب تعالى فى الآخرة .

وأما خطة سيرها ومنهاج عملها ، فلم تقتبسهما إلا من كتاب الله العزيز وسنة جميع الأنبياء والرسل عامة وسيدهم وخاتمهم النبى الامى العربى — صلوات الله عليهم أجمعين — خاصة . فلا يهمها فى شىء بعد ذلك ما تسلكه الجمعيات العصرية من مسالك متشعبة وما تختاره الأحزاب السياسية من طرق للعمل ملتوية . وكذلك لا تلتفت فى قليل ولا كثير إلى ما تأتى به النظريات الحديثة الملفقة فى أوربا وأمريكا . وإنما جل استمساكها واعتمادها على ماجاء به كتاب الله وسنة رسوله من البينات والأحكام والهدى .

والذين يدخلون فى هذه الجماعة وينضمون الى صفوفها على هذا المنهاج ، ليس لهم من عمل عندها غير أن يشهدوا شهادة الحق باعمالهم ، ويظهروا بمظهره الوضىء فى أقوالهم وأخلاقهم : ويجدوا ويجتهدوا مجتمعين متساندين فى سبيل إقامة الدين وتنفيذ نظمه وقوانينه كاملة من غير زيادة ولا نقصان ، ويقوموا لذلك بحركة جماعية شاملة حتى يمكن قضاء « شهادة الحق على الناس » على وجهها ، وتتم حجة الله على خلقه ، فكل من آمن بعقيدة الاسلام وشهد شهادة الحق بقوله وعمله ، وأظهر استعداده لمؤازرتنا فى هذا العمل ، ويشعر بما يصحبه من الواجبات والأعباء الخطيرة ، يعد عضوا من أعضاء الجماعة ، ذكراً كان أو أنثى ، شرقيا كان أو غربيا ، عربيا كان أو أعجميا . فان عقيدة الاسلام لا تعرف للفوارق اللغوية والجغرافية والنسلية معنى ، ولا قيمة لها فى دائرته

وأعضاء الجماعة هم الذين ينتخبون أميرهم حسب الشورى التى ورد بها القرآن وعمل بها الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون المهديون من أصحاب النبى ﷺ . ولهم أن يعزلوا هذا الأمير عن منصبه حسب قواعد الشرع ، إذا شاءوا . وهذا الأمير — أمير الجماعة الاسلامية — يتولى أمرها ويدبر شئونها ويقودها الى ميادين الجهاد والكفاح ؛ ولا نقول — ولم نقل

قط — إن أمير جماعتنا هو أمير المسلمين كافة ، وان من لم يدخل في طاعته فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه أو مات ميتة الجاهلية بل إنما هو أمير أعضاء الجماعة الذين انتخبوه أميراً لهم بانفسهم .

والجماعة الاسلامية تقسم رجالها الى ثلاث طبقات :

(١) أعضاؤها الخصوصيون (ويسمون « اركان » باللغة الاردية) : وهم الذين آمنوا بسمو دعوتها ، ووقفوا حياتهم للوصول الى غايتها العليا ، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها أو يموتوا فى سبيلها ، ولم يبالوا فى سبيل ذلك بما يصيبهم من الأخطار والشدائد . وعددهم يبلغ ستمائة رجل ونيفا فى جميع باكستان ، إلا أنهم رجال وأى رجال . وفيهم من النساء عدد لا يستهان به ، وهن يعملن ويجاهدن فى دوائرهن المخصوصة . وهؤلاء هم الصفوة المختارة .

(٢) أنصارها (ويسمون « همدرد » باللغة الأردية) : وهم الذين لبوا دعوتها ويبذلون جهدهم المستطاع فى سبيل نشرها وتعميمها ، إلا أنهم لم يتمكنوا بعد - لسبب من الأسباب - من أن يقفوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الدعوة ، شأن الأعضاء الخصوصيين . وهؤلاء يبلغ عددهم بضعة آلاف من النفوس .

(٣) المتأثرون بدعوتها (ويسمون «متفقين» باللغة الاردية): وهم الذين يقرأون منشورات الجماعة وجرائدها ومجلاتها بانتظام، ويظهرون موافقتهم الكاملة للدعوة ومنهاج الجماعة، ولكنهم لا يعملون فى سبيل نشر الدعوة عملا منظما كالأنصار، إما لضعف فى عقيدتهم أو خوفاً من اضطهاد الحكومة. وهؤلاء لا يحصيهم السجل، ولا يعلم عددهم الا الله، وهم منتشرون فى كل محل.

ادارة الجماعة الاسلامية ومركزها العام:

والجماعة الاسلامية لها فروع منبثة فى معظم مدن باكستان وكثير من قراها. وكل جماعة - فى المدينة أو القرية - تقوم باعمالها وتنشر الدعوة بين سكان البلاد عامة بكل ما تصل اليه يدها من الوسائل الشرعية، وحسب ما تتلقى من التعاليم من لدن مركزها العام. ولكل فرع من هذه الفروع المنتشرة أمير محلى، ومكتبة لتوزيع كتب الدعوة، ومؤسسة مالية (بيت المال) يدخر فيها ما يؤدى أعضاء الجماعة وأنصارها من زكاة أموالهم السنوية وما يتبرعون به من ذات يدهم، حسب ما تقتضيه الحاجة.

ومما لا بد من ذكره أن الجماعة لم تطلب الاكتتابات ، ولم تمد يد السؤال الى الجمهور ، ضنا بكرامتها وحفظاً لدعوتها الخالصة من نفوذ أصحاب الأغراض والأهواء الذاتية ، وإنما أعضاؤها وأنصارها والمتأثرون بدعوتها هم الذين يقومون بجميع نفقاتها وتكاليفها المالية .

وهذه الفروع الكثيرة موزعة الى أقسام ومراكز فرعية حسب التقسيم الادارى . ويشرف على الجميع مركز الجماعة العام فى مدينة لاهور ، وهناك مقر أمير الجماعة العام وبيت مالها ومكتبتها الكبيرة وإدارة تنظيمها العامة .

منشورات الجماعة

ومما لا يخفى على أحد أن دعوة إسلامية - مثل هذه الدعوة - لا يمكن أن تتقدم وتنمو صعداً فى هذا الزمان بمجرد الدعاوى الطائلة والهتافات الفارغة ، بل لا بد لها من حركة قوية علمية تدرب الناشئة على منهاج دينى مخصوص ، وتثقفهم بثقافة اسلامية جامعة ، حتى يقدروا على أداء شهادة الحق بألسنتهم وأقلامهم ، ويتمكنوا من إبراز محاسن الاسلام وإقامة الحجج الظاهرة والبراهين الساطعة على سمو تعاليمه ونظرياته السياسية

والاقتصادية وعلو مبادئها وتفوقها على ما يماثلها من النظريات الرائجة المستوردة من بلاد الغرب .

والحمد لله على أن الجماعة أحست حاجتها وافتقارها الى كل ذلك من أول أمرها ، وقامت بتربية أعضائها وتثقيفهم بالثقافة الاسلامية الجامعة الخالصة فى كل فرع من فروع العلم والأدب ، حتى ظهرت آثار جهادها ملموسة ، ونشأ بين أعضائها رجال وشبان متضلعون من علوم القرآن والسنة ، مطلعون على العلوم العصرية ، يعرضون الاسلام والنظام الاسلامى فى محاوراتهم وكتاباتهم بأساليب جديدة علمية تلائم أفكار الناس وأذواقهم فى هذا الزمان . فقد نشرت الجماعة الى الآن من كتبها ومنشوراتها ما يربى عدده على خمسين كتاباً بين صغير وكبير ، وهى تعالج الحياة البشرية ومشاكلها الدقيقة والخطيرة ، وتبين تعاليم الاسلام فى كل فرع من فروعها من العبادات والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد . والذى يعرفه القاصى والدانى ويعترف به أعدى أعداء الجماعة أنها أحدثت انقلاباً فكريا وعمليا فى بلاد الهند وباكستان ولا فخر ، فان الحمد والمنة لله وحده . ويجد القارىء عند انتهاء هذه الرسالة فهرساً موجزاً

لبعض منشورات الجماعة المهمة ، ولولا ضيق نطاق المقـــام لفصلنا القول فى ما تحتوى عليه هذه المنشورات من المطالب .

وبما أن هذه الكتب كلها باللغة الأردية - لغة معظم سكان هذه البلاد ولا سيما المسلمين منهم - فقد أنشأت الجماعة فروعا عديدة تعتنى بتعريف الجماعة وتبليغ دعوتها للذين لا يعرفون الأردية ، وتقوم بترجمة كتبها ورسائلها الى معظم اللغات الهندية الداخلية واللغات الخارجية العالمية .

دار العروبة للدعوة الاسلامية

وهذه الدار - دار العروبة للدعوة الاسلامية - التى تتشرف بتقديم هـــذه العجالة ، هى أيضا فرع من فروع الجماعة الاسلامية ، تأسست لابلاغ دعوتها الى العـالم الاسلامى عامة وبلاد العرب خاصة ، علها تجد فى إخواننا الناطقين بالضاد من يساعدها فى مهمة الاسلام ، ويشد أزرها فى تحقيق غايته العليا - إقامة دين الله فى أرضه .

ولعلنا نلحق بهذه العجالة فهرسا للرسائل التى قدر لهذه الدار تعريبها ونشرها الى الآن . وهذه الرسائل ، على صغرها وقلة حجمها ، تساعد القـــارىء فى معرفة دعوة الجماعة الاسلامية

ومنهاج عملها وخطة سيرها إن شاء الله تعالى : وسوف تتلوها اخواتها الأخرى إن شاء الله تعالى . وكذلك فى النية إصدار مجلة عربية شهرية اذا سمحت لنا به الظروف ، والعقبات لا تزال حائلة بيننا وبين تحقيق ذلك ، وعسى الله أن يمهد السبيل ويذلل العقبات ، وهو المستعان وعليه التكلان .

وكذلك نشرت الجماعة عدة رسائل وكتب باللغة الانكليزية وللجماعة وأعضائها وأنصارها صحف يومية وأسبوعية ومجلات شهرية باللغة الاردية وغيرها من اللغات الهندية . ولولا أن ضيق نطاق المقام يحملنا على الاختصار لفصلنا فيها القول .

بعض منشورات الجماعة المهمة بالأردية

١ - (الجهاد فى الاسلام) : كتاب جامع فذ فى موضوعه لم يؤلف مثله من بدء تاريخ الاسلام الى يومنا هذا بأى لغة من لغات العالم .

(للاستاذ المودودى ، الطبعة الثانية فى ٥٠٤ صفحات)

٢ - (المسلمون ومعضلات السياسة الحاضرة) : كتاب بين فيه المؤلف مختلف مذاهب السياسة الهندية ، ورد على نظرية التفريق بين الدين والسياسة ، وأنذر المسلمين العواقب السيئة

لاتباعهم خطط السياسة القومية والوطنية العوجاء ، ودعاهم الى إقامة النظام الاسلامى فى الأرض ، ورسم لذلك الخطة الواضحة البينة .

(للاستاذ المودودى ، فى ثلاثة أجزاء ، ٤٧٦ صفحة ، الطبعة السادسة)

٣ - (الحجاب) : تعرض فيه المؤلف اولا للحياة الاجتماعية والعشرة البيتية فى النظام الغربى الأوربى ، وكشف عن سوءاتها وما فيها من المفاسد ، ثم رد عليها رداً مفحما حسب قواعد الفطرة والشرع ، وأوضح نظام العشرة البيتية وقواعد الاجتماع فى الاسلام ، مستنداً الى كتاب الله وسنة نبيه والفطرة السليمة الانسانية .

(للاستاذ المودودى ، الطبعة الخامسة فى ٢٤٠ صفحة)

٤ - (التفهيمات) فيه بحوث قيمة عن المسائل المهمة فى التوحيد والكلام مما يصعب على المتعلمين فهمه والاحاطة بمصالحه وحكمه ، كالهداية والضلال ، والعبادة والجهاد ، والحرية والتسامح الدينى وغيرها . والآن يكاد ينشر الجزء الثانى لهذا الكتاب .

(للاستاذ المودودى ، الطبعة الرابعة ، الجزء الاول فى

٣٢٤ صفحة)

٥ - (التنقيحات) : كتاب يتناول بالبحث والنقد المسائل والآراء المضطربة التى تنشأ فى أذهان الناشئة الجديدة عن الاسلام ومبادئه الخالدة لتثقفهم بالثقافة الغربية فى الكليات العصرية . ومما ساعد المؤلف على ادحاض هذه الشبهات تضلعه من العلوم الدينية والعصرية ، وارتواؤه من المنهلين جميعاً .

(للاستاذ المودودى ، الطبعة الخامسة فى ٢١٢ صفحة)

٦ - (رسالة فى فهم المبادىء الاسلامية) : خير كتاب ألف لطلاب المدارس والكليات الجديدة يساعدهم فى فهم الاسلام الكامل وأصوله وقواعده ، وقد طبع منه ما يزيد على أربعين ألف نسخة خلال السنين العشر الاخيرة ، وقرر تدريسه فى جميع المدارس الثانوية فى هذه البلاد . وقد ظهرت ترجمته ونشرت بالانكليزيه وسائر اللغات الهندية الداخلية .

(للاستاذ المودودى ، الطبعة العاشرة فى ١١٢ صفحة)

٧ - (الخطب) : مجموعة خطب ألقاها الاستاذ المودودى أيام الجمعة ، وبين فيها الاسلام لعامة الناس بأسلوب بالغ الغاية فى السهولة واليسر . وقد كان لهذه الخطب رواج عظيم وجعل

الائمة فى المساجد يقرأونها ويلقونها على المصلين أيام الجمعة فى أكثر أنحاء البلاد .

(الطبعة السابعة فى ٢١٦ صفحة)

٨ - (المصطلحات الأربعة فى القرآن) : فيه بيان لما جاء فى القرآن من المصطلحات الاربعة : الاله ، والرب ، والعبادة ، والدين . حسبما وردت فى القرآن والسنة والكلام العربى قبل الاسلام وبعده . ولا شك أن هذا الكتاب يمهد للطالب المستبصر سبيل فهم القرآن ويكشف النقاب عن بعض أسراره وحكمه البالغة .

(للاستاذ المودودى ، الطبعة الأولى فى ٩٦ صفحة)

٩ - (حقيقة الشرك) ، (حقيقة التوحيد) ، (حقيقة التقوى): ثلاثة كتب تبين المعنى الحقيقى للتوحيد والتقوى والشرك حسبما وردت هذه الكلمات فى القرآن والسنة . وهى نتيجة بحوث مضنية شاقة وتفكير عميق متواصل ، قد أنفق فيه المؤلف مدة غير يسيرة من عمره . وهو — اطال الله بقاءه — من أفذاذ علماء الهند . فهذه الكتب تساعد القارىء أولا فى فهم حقائق التوحيد والشرك والتقوى ، وتروضه ثانيا على تدبر الكتاب العزيز واستكناه أسراره وبدائع آياته .

(للاستاذ أمين أحسن الاصلاحى ، كلها فى ٢٨٤ صفحة)

١٠ - (الربا) : فيه رد على الشيوعية والرأسمالية الممقوتتين وشرح تفصيلي لنظرية الاسلام فى الربا ونظامه الاقتصادى ، وبيان وجهة نظر الاسلام فى باب المصارف والتأمين ، وما يختاره الإسلام من الصورة الواضحة للشؤون المالية فى هذا الزمان

(للاستاذ المودودى ، الطبعة الاولى فى ١٦٨ صفحة)

١١ - (الشيوعية والاسلام) للاستاذ مسعود الندوى معتمد دار العروبة للدعوة الاسلامية

(الشيوعية ونظام الاسلام الاقتصادى) للسيد مظهر الدين الصديقى

فيهما بيان مفصل لفلسفة الشيوعية الماركسية والاوضاع الاقتصادية فى النظام الشيوعى ، ويتبعه رد على مقنع مستند الى قواعد الفطرة والدين والاقتصاد ، ثم شرح لنظام الاسلام الاقتصادى وبراهين قاطعة وحجج بينة لتفوقه على كل نظام اقتصادى فى الارض .

(الطبعة الثانية فى ١٩٠ و ٣٨٤ صفحة) .

١٢ - (القانون الاسلامى) : خطبة ألقاها الاستاذ المودودى فى كلية الحقوق فى لاهور ، وشرح فيها القانون الاسلامى ومآخذه والخطة العملية لتنفيذه فى هذه البلاد .

(الطبعة الاولى فى ٥٦ صفحة) .

منشورات الجماعة بالانكليزية :ــ

١ — Towards Understanding Islam : ترجمة (رسالة في فهم المبادئ الاسلامية) التى سلف ذكرها فى جملة المنشورات الأردية تحت رقم (٦) . (للاستاذ المودودى ، الطبعة الرابعة فى ١٧٢ صفحة) .

٢ — Nationalism and India (القومية والهند) : ترجمة رسالة للاستاذ المودودى رد فيها على القومية الهندية داعيا الى الاسلام الخالص النزيه من شوائب القومية أو الوطنية .

(الطبعة الثانية فى ٧٢ صفحة)

٣ — Political Theory of Islam : نفس الرسالة المترجمة بالعربية باسم « نظرية الاسلام السياسية »

(للاستاذ المودودى ، الطبعة الثانية فى ٧٢ صفحة)

٤ — Process of Islamic Revolution رسالة للاستاذ المودردى مترجمة بالعربية باسم « منهاج الانقلاب الاسلامى »

(الطبعة الثانية فى ٥٨ صفحة)

٥ - Economic Problem of Man and its Islamic Solution

نفس الرسالة المعربة المعروفة « معضلات الاقتصاد وحلها فى الاسلام »

(للاستاذ المودودي ، الطبعة الاولى فى ٥٦ صفحة)

٦ — Ethical View Point of Islam (نظرية الاسلام الخلقية) : رسالة شرح فيها المؤلف وجهة نظر الاسلام فى باب الاخلاق وبين محاسنها وتفوقها على المبادىء الخلقية التى تقدمها المذاهب الفلسفية والنظريات الرهبانية .

(للاستاذ المودودى ، الطبعة الاولى فى ٤٠ صفحة) .

٧ — What is Islam ? (ما هو الاسلام ؟) : رسالة فى شرح مبادىء الاسلام الأولية ، ألفت بوجه خاص للتوزيع بين غير المسلمين والذين لم يدرسوا الاسلام درسا صحيحاً من أبناء المسلمين أنفسهم .

(للسيد مظهر الدين الصديقى ، الطبعة الثانية فى ٩٦ صفحة)

٨ — After Secularism What (ماذا بعد الالحاد ؟) : رسالة تبين تصور الاله النزيه السليم وما يترتب على الايمان به من نتائج فى حياة الانسان العملية . (للسيد مظهر الدين الصديقى ، الطبعة الاولى فى ٥٦ صفحة) .

٩ — Message of Jamâ - 'at - i - Islami (دعوة الجماعة الاسلامية) : خطبة ألقاها الاستاذ المودودى وبين فيها دعوة الجماعة الاسلامية وغايتها ومنهاج عملها .

(الطبعة الاولى فى ٤٠ صفحة) .

تعقيب اللجنة

فى هذا العرض المجمل لتـاريخ دعوة الإسلام فى الهند والباكستان أطلعنا الأستاذ مسعود الندوى على صورة دقيقة للتطورات المختلفة التى مرت بها هذه الدعوة ، والمعالم البارزة التى تمتاز بها . .

ونريد بعد أن عرضنا هذه الصورة على القارىء أن نقف معه وقفات نأخذ منها العبرة ونسترشد بها ، حتى تتم لنا الفائدة والنفع بتجارب إخواننا والسابقين علينا :

١ — وأول ما نستفيده — نحن معشر العاملين للاسلام والداعين إلى الله تعالى فى هذا العصر — أن تاريخ هذه الأمة الاسلامية الكريمة لم يزل حافلا طول القرون الماضية بهذه الجهود المتلاحقة التى بذلها المسلمون فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى لنشر هذا الدين الحنيف بين الناس ، ولتصحيح العقيدة فى نفوس المسلمين ، ولدفع الانحرافات والبدع والأهواء عن هذه الأمة ، وللوقوف عند حدود كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ . وفى هذا كله خير مصداق لقول رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من

أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة »[١] ولقوله «إن الله لا يجمع أمتى على ضلالة »[٢]

وفيه أيضا بيان لحقيقة دورنا فى العمل لهذا الدين ندرك معه أننا لسنا سوى حلقة صغيرة من حلقات عديدة فى هذه السلسلة الطويلة الكريمة الممتدة عبر تاريخ أمتنا المجيد ، وبذلك نعرف حقيقة قدرنا « ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه » ، ولا يوجد فينا من لا يثنى بالخير على من سبقنا من المجاهدين العاملين لهذا الدين، وبخاصة على القرون الأولى التى بدأت بصحابة رسول الله ﷺ الذين جاهدوا فى الله حق جهاده حتى بلغوا هذا الدين ونشروه فى الآفاق وكانوا أعلم الناس بالحلال والحرام، ثم على من تبعهم بإحسان ممن ساروا سيرتهم ونهجوا نهجهم ، وحرصوا على تثبيت هذا الدين فى قلوب من دخل فيه من الأمم المختلفة، وعملوا دائبين على تدوين علوم الإسلام المختلفة ، حتى وصلت إلينا هذه الرسالة

---

(١) رواه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين ، ورواه ابن ماجه بمعناه فى سننه ، ورواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما بقريب من ذلك .

(٢) أخرجه الترمذى من حديث ابن عمر وقال : حديث حسن .

تامة كاملة قد حفظها الله تعالى مما وقع فى الرسالات السابقة من تحريف فى كتبها ، وضياع لصحيح شرائعها . .

٢ — وفى هذا العرض أيضا نرى سجلا صادقاً نتبين منه كيف يقوم العلماء العاملون المجاهدون الداعون إلى الله على بصيرة بالوراثة الحقيقية عن أنبياء الله ورسله الكرام ، وفى ذلك نذكر قوله ﷺ من حديث أبى الدرداء « . . . وإن العلماء ورثة الأنبياء . وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (١)

ولقد وقف هؤلاء العلماء أمام أهواء الملوك وطغيانهم كما رأينا فى موقف المجدد أحمد السرهندى من الملك أكبر (٢)

وكان ذلك من أسباب إنقاذ الهند من الزيغ والضلال . . كما عارضوا البدع والضلالات التى دخلت فى الدين عن طريق الصوفية الضالة ، (٣) أو عن طريق التشيع وعلم الكلام (٤)

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة .

(٢) انظر ص ٢٤ وما بعدها .

(٣) انظر ص ٢٨ (٤) انظر ص ٤٠

ولقد كان العلماء المدافعون عن السنة مثل الشيخ عبد الحق ، وولى الله الدهلوى وتلاميذه ، والسيد سليمان الندوى مد الله فى عمره ، هم منارات الطريق وأعلام الهدى . فقد قاوموا أولا الجاحدين لدين الله على اختلاف طوائفهم وفرقهم ، فحاربوا المنكرين للحديث النابذين للسنة (١) ، كما تصدوا للذين يعدون أنفسهم مجددين فى الدين وهم ممن يخوضون فيه بغير علم أو يحرفون الكلم عن مواضعه بتأويلهم لكتاب الله وسنة رسول الله تأويلا يوافق أهواءهم كما فعل أحمد خان (٢) ، أوممن يوادون الكفار والمشركين مثل أبى الكلام الذى مالأ الهنود وانتصر للحركة الكمالية (٣) .

ثم قاوموا أيضا الجامدين من العلماء الذين وقفوا عند التقليد الأعمى والعصبية للمذاهب والشيوخ . وأخيرا حاربوا بقوة علماء السوء الذين زينوا للملوك سوء أعمالهم ، وابتدعوا فى الدين مالم يأذن به الله (٤) .

---

(١) انظر ص ٧٤ (٢) انظر ص ٥٧ – ٥٩

(٣) انظر ص ٧٧ (٤) انظر ص ٢٧

إن فى ذلك كله برهانا واضحا على مكانة العلم الحقيقية فى دين الله ، وعلى حقيقة الدور الذى يقوم به العلماء . وفى المسند عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ « إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم فى السماء يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، فإذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة » .

وأخرج الترمذى وابن ماجة والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

ولقد أنذرنا رسول الله ﷺ بقبض العلماء وذهاب العلم وبسوء العاقبة بعد ذلك . . . روى البخارى ومسلم والنسائى والترمذى وابن حنبل وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رءوسا (وفى رواية رؤساء) جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويبث الجهل ويشرب

الخمر ويظهر الزنا » .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الطائفة الظاهرة على الحق ، وأن يرزقنا العلم النافع ، ويجنبنا فتن الدنيا والآخرة ..

٣ — ولعل أخطر ما يصيب الدعوات ذلك الانحراف الذى يطرأ عليها بعد حين من سيرها ، فتحيد عندئذ عن منهجها القويم الذى بدأت به . وذلك إما للتغيير الذى يطرأ على أفكار بعض القائمين على هذه الدعوات والموجهين لها ، أو لأن هؤلاء تستخفهم بشائر النصر فيتعجلون ثماره ، ويندفعون للوصول إلى مآربهم اندفاعاً قد يصحبه الكثير من التضحية بمبادىء الدعوة ومثلها الصحيحة ..

والعاصم لكل دعوة من هذا الانحراف والزيغ هو نضوج الفهم ووضوح الأهداف عند كل فرد من أفرادها بحيث يصبح من الصعوبة بمكان استهواؤهم أو الحيدة بهم عن طريقهم الواضح المستقيم ..

ولعل فى الحركة التى قامت لتأييد الخلافة ومؤازرة مسلمى طرابلس والبلقان خير درس لنا فى هذا المقام ، ذلك أنها — كما ذكر الأستاذ مسعود الندوى — « ما قامت ونهضت على أساس

فكرى متين ، والذين أقبلوا عليها وخاضوا غمارها لم يتفكروا فى مصيرها ومستقبلها ، وإنما كانت حركة « عاطفية » منبعثة من عاطفة صادقة ، ظلت تعمل وتسير فى طريقها ما دامت الحوادث تغذيها وتزودها بشعور متدفق جياش » (١)

. . حتى إذا ما تغيرت الأوضاع وألغيت الخلافة ، وأرغم كمال أتاتورك وأتباعه أمتهم التركية على قبول خطته الجديدة المناقضة لمبادىء الإسلام . . وجد من الهنود المسلمين من ينتصر له ويدافع عنه مثل أبى الكلام ، ونبتت نابتة من المتفرنجين الذين استطاعوا أن ينتهزوا الفرصة لنشر أفكارهم وبث مبادئهم .

٤ — ولقد أمدنا الأستاذ مسعود الندوى ببيان عن الجماعة الاسلامية التى يرأسها الأستاذ المودودى، عرض لنا فيه المراحل المختلفة التى مرت بها الجماعة والأهداف الأساسية التى تهدف إليها.

ولعل فى وقوفنا عند بعض كلامه، وتحليلنا لأهم مايميز الجماعة فى عملها مايعين دعاة الإسلام والعاملين له على الالتقاء وتوحيد الأهداف والوسائل ، وانتفاع البعض بتجارب البعض الآخر ..

---

(١) انظر ص ٧١

ولو راجعنا ما قرأناه فى ص ٨٧ ، ٨٨ لوجدنا تحديداً دقيقاً لهذه الأهداف ننقل منه هذه السطور :

« ... وكذلك « العبودية لله » التى هى لباب الدعوة وملاك أمرها، ندعو الناس إلى إقامة نظم الحياة على أسسها المتينة المحكمة لها معنى خاص ، ومفهوم معين ، بينه الأستاذ المودودى تبيينا وأوضحه إيضاحا فى مختلف مؤلفاته ومقالاته ، حتى لا يذهل عنه أحد . وذلك أنه ليس لكل رجل أن يعبدالله حسب مايشاء ويبتغى ، بل الأمر أن للعبودية والعبادة صورة واحدة مخصوصة هى اتباع الشريعة التى جاء بها النبى الأمى محمد بن عبد الله ﷺ ، فلا يجوز لمسلم أن يرد منها ما يشاء ويختار منها ما يريد ، وذلك أن الاسلام عبارة عن الإذعان الكامل للشريعة المحمدية . والوسيلة إلى العلم بالشريعة ليست منحصرة فى كتاب الله ، بل السنة النبوية والحديث النبوى أيضا من الوسائل الأساسية للعلم بالشريعة . وليس من طريق الاستدلال من كتاب الله وسنة نبيه أن يسخر المرء النصوص لأهوائه ونظرياته ، وإنما الطريق الصحيح للاستخراج من ذينك الينبوعين أن يجعل المرء نظرياته وآراءه تبعاً لأوامر الله ورسوله ﷺ . وكذلك لسنا من القائلين

بالتقليد الجامد الذى لا متسع فيه للاجتهاد وتحرى الحق والصواب كما لا نقول بالاجتهاد « الكاذب » الذى يرفض أقوال السلف جميعاً ويسحب ذيل النسيان على أفكارهم ومجتهداتهم »

ولعل أهم الخصائص التى تميز الجماعة الاسلامية هى :

ا — النظرة إلى الاسلام على أنه دين شامل يعالج أمور الحياة جميعاً ، وليس هو بالدين الذى يقتصر على العبادة وحدها (١)

ب — أخذت الجماعة الاسلامية أعضاءها بالفهم العميق والتكوين الدقيق فى المرحلة الأولى من عملها كجماعة ، إلى جانب تعميم الدعوة ونشر الفكرة بين الناس .

ج — حرصت الجماعة على أن يكون كل فرد من أفرادها صورة ناطقة لمبادىء الاسلام ، مهما كان فى ذلك من عنت ، وشدة أو مخالفة لمألوفات الناس وعرفهم (٢)

د — قاومت الجماعة التيار الغربى الالحادى الشيوعى بتيار آخر علمى وفكرى مستمد من الاسلام ، وقائم على أساس

---

(١) انظر ص ٨٥ (٢) انظر ص ١٠٢ وما بعدها

محاربة الفكرة بالفكرة (١)

ه — امتازت الجماعة بالبعد عن جانبى الجحود المنكر لمبادىء الاسلام وأصوله ، والجمود الذى لا مرونة فيه ، مع التمسك التام بمبادىء الاسلام الحقه ، وجعل الكتاب والسنة الأصل الذى نحمل أنفسنا عليه ، ولا نحمله على ما نهوى ونشتهى ..

و — اهتمت الجماعة بجانب « الكيف » أكثر مما اهتمت بجانب « الكم » فى دعوة الناس وفى تكوين أفرادها ، ويتضح ذلك من تقسيم رجالها إلى ثلاثة أقسام : أركان وأنصار ومتأثرين ومن منهج التربية الذى أخذت به أعضاءها .

وفى ذلك اتباع لفقه الاسلام الذى يرى أن العدد والكثرة أمور لا قيمة لها فى ميزان الله تعالى ، فالكثرة ليست هى سبب النصر ﴿ وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ إنما النصر فى مقياس الاسلام هو بالإيمان وبتقوى الله وطاعته ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ ،

---

(١) انظر ص ١٣٠

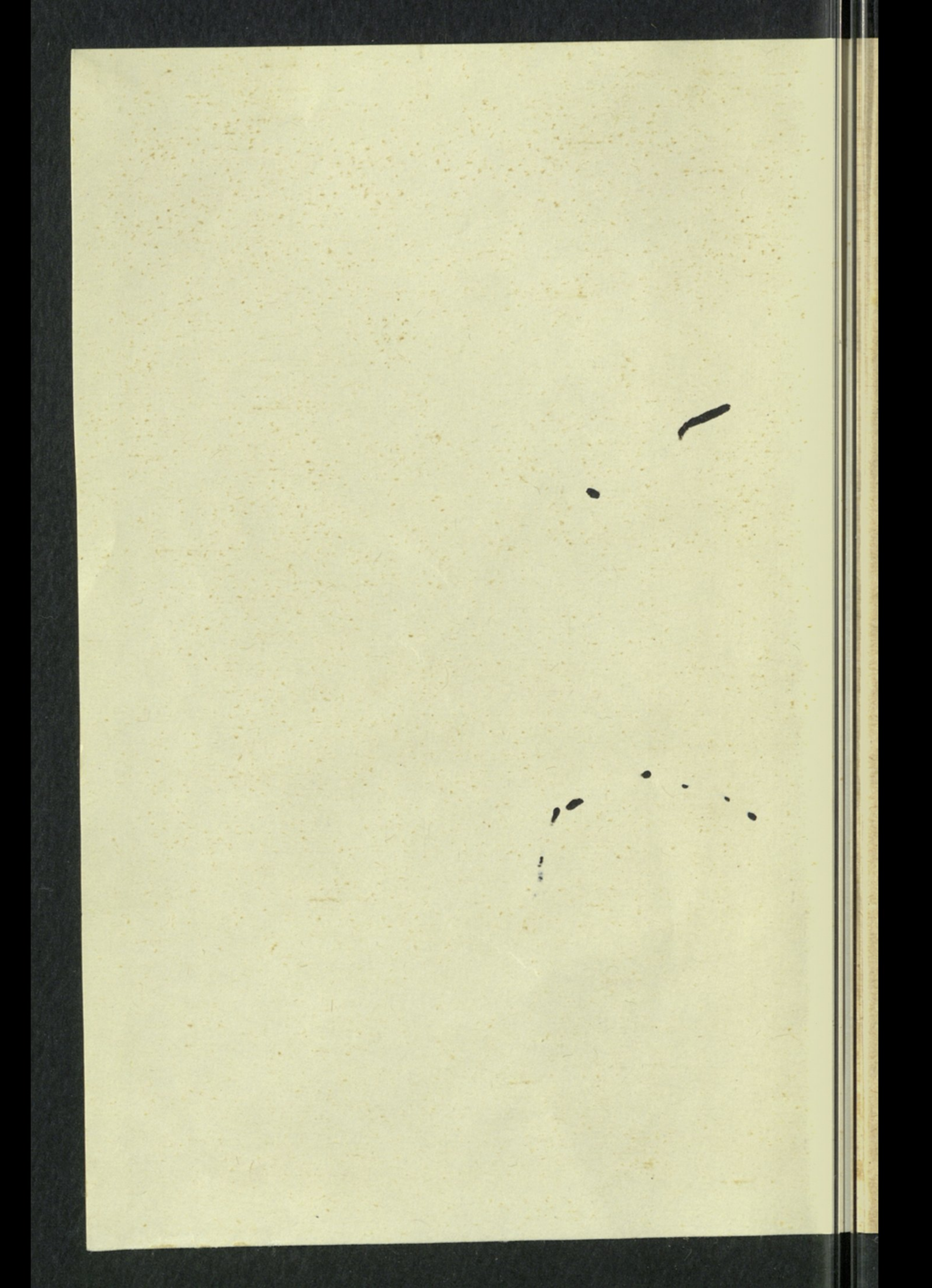
﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾

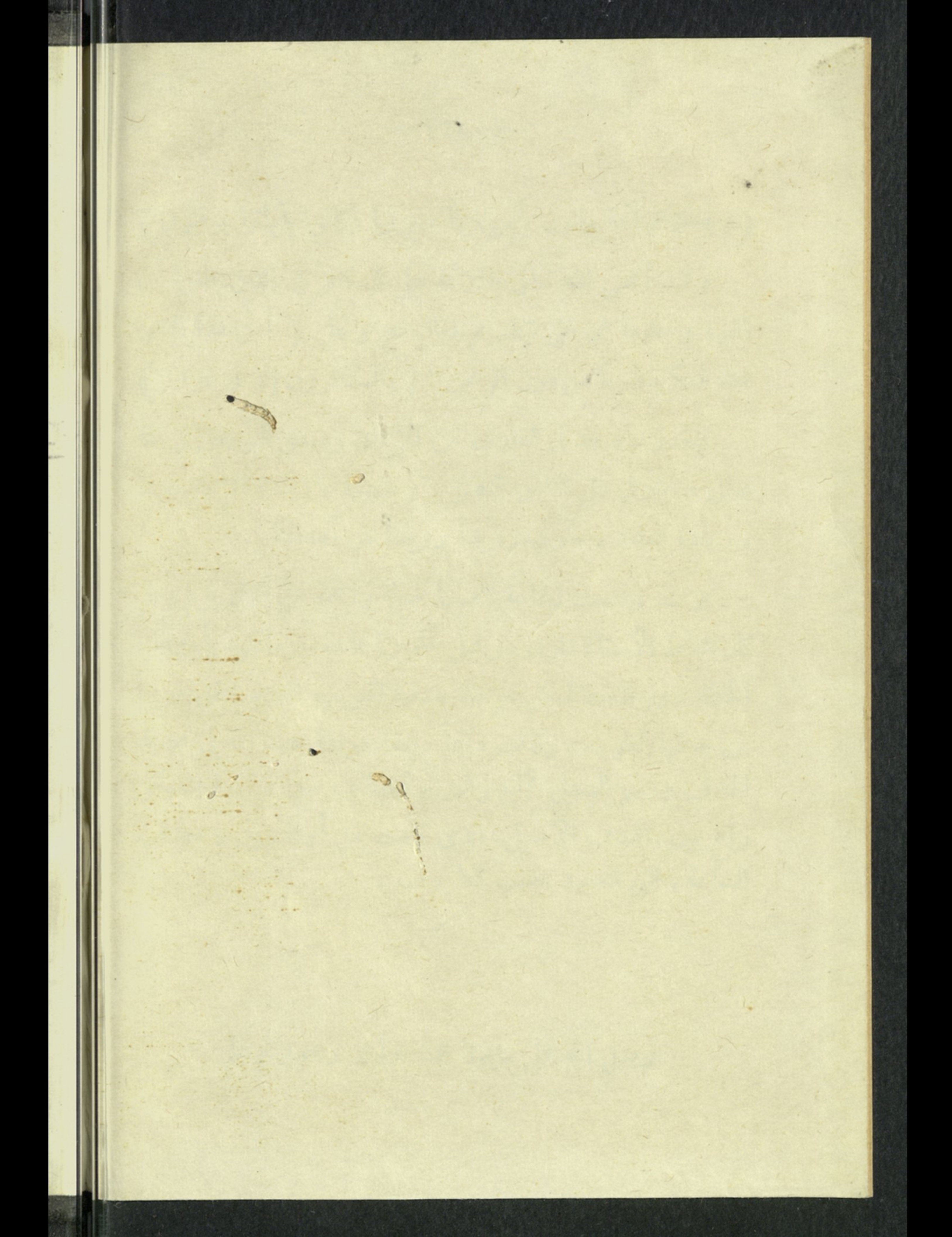
ولقد أنحى الله تعالى باللائمة على الكافرين الذين ظنوا أن القوة وحدها هى التى تنصرهم فقال عز وجل ﴿أمن هذا الذى جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا فى غرور﴾

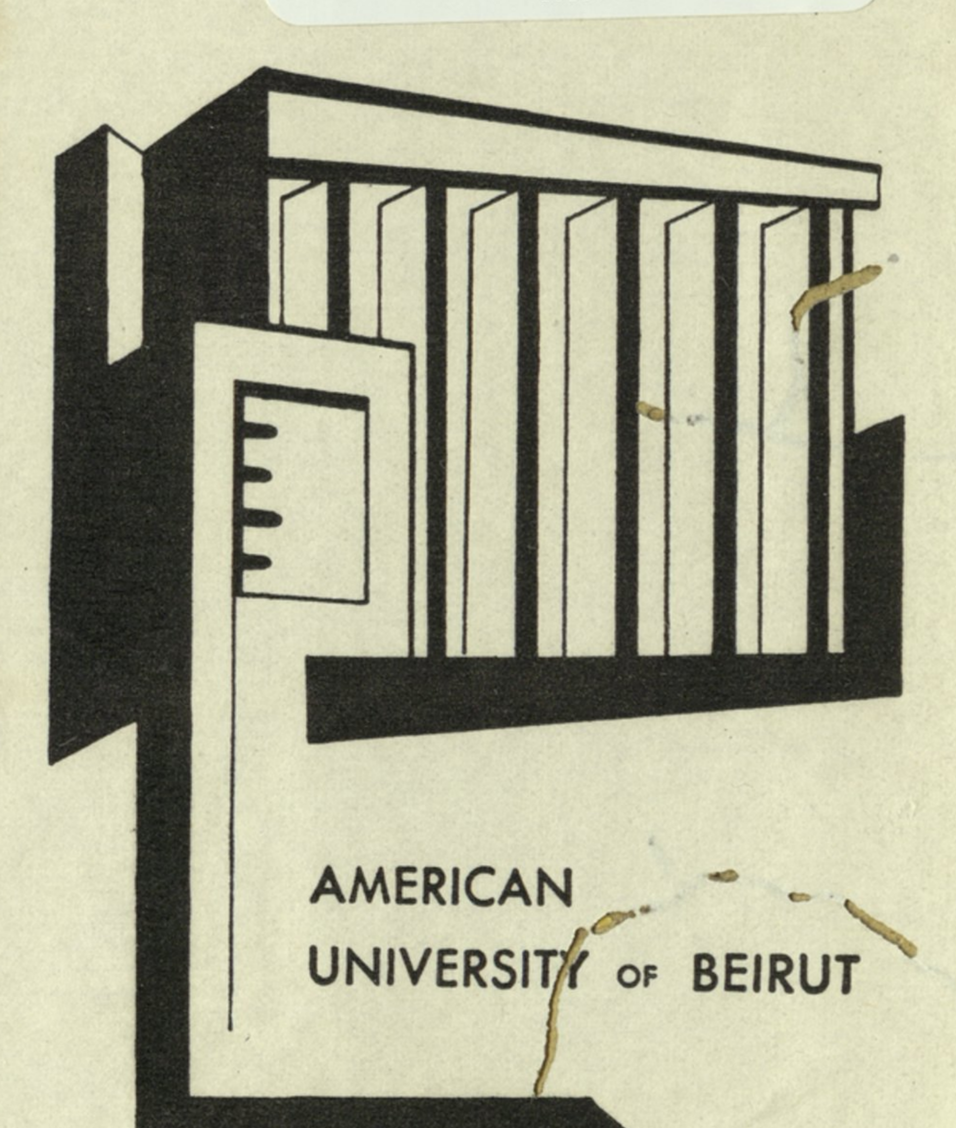
فبقدر مايوجد فى القلوب من الإيمان وصدق التوجه إلى الله تعالى ، يتنزل على الناس النصر . وبسبب « زيادة الإيمان » لا « زيادة العدد » نقترب رويداً رويداً من أهدافنا ..

ز — وضعت الجماعة لنفسها خطة واضحة من أول يوم ، بل كان نشاط الأستاذ المودودى قبل تكوين الجماعة جزءاً تمهيدياً من هذه الخطة ، ووضعت لكل مرحلة هدفها القريب الذى يحقق جزءاً من خطتها الطويلة ، وكانت دائماً دقيقة موفقة بحمد الله فى تحديد الهدف ورسم السبيل إليه والتزام تطبيقه ، مع الموازنة بشكل واع بين «الهدف الأصيل» الذى قامت من أجله وبين « مطالب الساعة » التى تتجدد حسب الظروف .

وصلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم






AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT